العدد (٩) - رجب ١٤٢٩هـ - يوليو ٢٠٠٨م

الصوفية

إضاءة لتزكية النفس وتصحيح المسار

الإمام الصنعاني

أقوال علماء الأمة
في حكم دعاء الصوفية غير الله تعالى
والاستعانة بهم

الفضائية الصوفية .. لماذا؟ وإلى أين؟

الشخصية الصوفية

علي جمعه
والطواف بالقبور

وكيع بن الجراح

بسم ا لله الرحمن الرحيم

الهيئة الاستشارية للمجلة:

د. عبد العزيز محمد آل عبد اللطيف

الشيخ/ عبد المجيد الريمي

أ.د / الأمين الحاج أحمد

الشيخ/ عبد الرحمن عبد الخالق

هيئة تحرير المجلة:

حسن بن علي البار

عبد الرحمن بن محمد الهرفي

محمد بن عبد ا لله المقدي

- ترحب المجلة بإسهامات الكتاب في شتى موضوعات التصوف.
- ترحب المجلة بتعقيبات القراء ومراجعاتهم حول ما ينشر في المجلة.

بريد التحرير:

a@alsoufia.com

الصف والتنسيق:

دار الصديق للنشر والتوزيع

(alsedeeq@msn.com)

الإخراج الفني:

أبو عبد ا لله القباطي

(alqupaty١١@hotmail.com)

في هـذا العـدد

الافتتاحية ٣

قالوا في التصوف.. الإمام الصنعاني ٤

عبادات تحت الضوء.. أقوال علماء الأمة في دعاء غير الله ٧

أبحاث ومقالات.. الشخصية الصوفية ١١

الفضائية الصوفية.. لماذا؟ وإلى أين؟ ٢٠

أئمة الزهد المرضيون.. وكيع بن الجراح ٢٤

من مشكاة النصح.. علي جمعة والطواف بالقبور ٢٨

منـــابعـــات:

سعياً للبركة.. لاعب كرة فرنسي في ضيافة شيخ البودشيشية ٤٢

طقوس وثنية وقرابين للقبور لمواجهة العنوسة والعقم في الجزائر ٤٢

أبو الهدى الحسيني.. ابن الرومي تأثر بالكتاب المقدس ٤٣

مؤتمر بجامعة الأزهر عن دور التصوف في مواجهة تحديات العصر ٤٣

مشيخة الطرق الصوفية تؤكد إطلاق أول فضائية صوفية مطلع ٢٠٠٩م ٤٤

أبو العزايم ينفي مشاركة الشيعة في مؤتمر الصوفية بأمريكا ٤٥

الطبعة الثانية من مهرجان موسيقي "القناوة" الصوفية ٤٥

صوفية ألمانيا يدعون للتقرب إلى الله عبر الموسيقى والغناء ٤٦

فيلم قطري –باكستاني- تركي عن جلال الدين الرومي ٤٧

الخليفة الجديد للقادرية.. ينظم الملتقى الثالث للطريقة بالجزائر ٤٧

مهرجان عن السلام برعاية صوفية في المغرب ٤٨

قنـــاة الضـــرار

((وَالَّـذِينَ اتَّخَـذُوا مَـسْجِداً ضِـرَاراً وَكُفْـراً وَتَفْرِيقـاً بَـيْنَ الْمُـؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ❖ لا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)) [سورة التوبة:١٠٧- ١٠٨].

طالعتنا الأنباء عن تحرك الطريقة العزمية - ذات القدح المعلى في بث التشيع في أوساط المتصوفة- لإنشاء قناة فضائية.. وهذا يشي بدلالتين:

الأولى: الترويج للمعتقدات الصوفية

الثانية: الدعم المادي غير المعلن لهذه القناة.

والملفت للنظر أن هذه القناة تقرر إشهارها بعد الزيارة المشبوهة لأمريكا، ولاشك أن كل عاقل يخامره الشك لتوالي التحركات..

إن مطالعة أرشيف موقع الطريقة العزمية يوضح بجلاء ماهية الإصلاح المرجو من هذه القناة، فدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب:

❖ عقائد غنوصية وهندوسية.

❖ هي مذهب إرهابي.. وتيار إلحادي خطير.

❖ وهذا الوباء الوهابي لابد من اجتثاث تجربته الخبيثة.

❖ وهذه الطائفة المقلدة لمحمد بن عبدالوهاب مجسمة مكفرة.

❖ وهم مبتدعة خراصون.

أما شيخ الإسلام ابن تيمية:

❖ المقتدي بأسلافه كلاب النار الحروريين (الخوارج)، والذين كفروا كثيراً من الصحابة، وذلك عندما حمل الآيات الواردة في الكفار على المؤمنين.

❖ وبضاعته من السب والقذف والتكفير هي بضاعة سفلة الناس.

❖ وهو جاهل بأصول الدين جهلاً مركباً، وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله وهو لا يشعر، فصدق عليه المثل العربي: (رمتني بدائها وانسلت)...

❖ وهو مكذب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومرتكب بذلك جرماً عظيماً، وصاحب حكم فاجر، وملبِّس وكذاب وجبان، وجاهل باللغة العربية وبأصول الدين...

❖ لقد سن ابن تيمية للوهابية انتهاك حرمة النبي صلى الله عليه وسلم، ولذلك استحق أن يوصف بالخبيث والمكابر وناقص العقل، والذي في قلبه مرض، الزائغ المتتبع ما تشابه من الكتاب والسنة ابتغاء الفتنة، والمكذب لرب العالمين، والخارج من الدين، والمزدري بأصفيائه المنتخبين، وخلفائهم الراشدين، وأتباعهم الموفقين!!

إن نَفَساً شيعياً ظاهراً يزكم الأنوف يلحظه كل متابع لمنشورات هذه الطريقة.. فهم يصرحون بعصمة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.. فيلزم حينئذ أن تكون لها العصمة الكبرى في الدنيا والآخرة، فتكون حينئذ معصومة تقية ولية...، اللمعة البيضاء (ص: ٣٧ – ٣٨).

بل وتستدل بكلام الإمامية الإثني عشرية زعماً أنه كلام أئمة آل البيت، وتحاول لجنة البحوث بالطريقة العزمية أن تبرر لنفسها الاستدلال بأقوال غلاة الشيعة، والكتب المعتمدة عند الإمامية الإثني عشرية فتقول: اعتمدنا في الكثير من مادة هذا الكتاب على أقوال أئمة أهل البيت الكرام؛ لأنهم أدرى الناس بالبيت وأهله، وليس سواهم (يقصدون أهل السنة).

وفي الشهور الخمسة الأخيرة قامت الطريقة العزمية بإصدار سلسلة مكونة من (٥) أعداد تحت عنوان: شبهات حول الشيعة.

ففي العدد الأول لهذه السلسلة - ورقمه (٣٠) من سلسلة الفتوحات العزمية- قارنت فيه الطريقة بين اعتقاد أهل السنة والشيعة في نظرية الإمامة، فذكروا رأي أهل السنة إجمالاً في أقل من صفحتين، ثم أخذوا يبسطون رأي الشيعة فيما يقرب من (١٠٠) صفحة، مفضلين رأي الشيعة، ففي (ص: ٣٩): (إلى هذه النتيجة أيضًا خلص الدكتور أحمد محمود صبحي؛ إذ يقول: أما من الناحية الفكرية فلم يقدم أهل السنة نظرية متماسكة في السياسة تحدد مفاهيم البيعة والشورى وأهل الحل والعقد، فضلاً عن هوة ساحقة تفصل بين النظرية والتطبيق، أو بين ما هو شرعي وبين ما يجري في الواقع).

وفي الجزء الثاني من (شبهات حول الشيعة) يحاولون تبرئة الشيعة من القول بأن مؤسس عقيدتهم ومذهبهم هو عبد الله بن سبأ اليهودي الذي ادعى الإسلام.

وفي الجزء الثالث ينتصرون لعقيدة (التقية)، ويدللون على أنها من الإسلام، ويجوزون الجمع الدائم بين الصلوات، ويطعنون في عدالة الصحابة، ويحاولون بكافة الطرق إثبات أن عدالتهم نسبية، وينهون هذا الجزء بإجازة اللطيمات الشيعية وأنها مشروعة، بل يستحسنونها؛ لأنها تدل على حب المسلم لآل البيت.

وفي الجزء الرابع يعرضون لحديث الغدير، ويدعون أن النبي صلى الله عليه وسلم نص على ولاية وخلافة علي، ولكن الصحابة تكاتموا الأمر، ثم يؤكدون عصمة آل البيت، ويصلون إلى جواز السجود على التربة الحسينية.

وفي الجزء الخامس يبررون لزواج المتعة، ويرون مشروعيته، وأنه حل لكثير من المشكلات التي تواجه الشباب في هذا العصر!!

ولنا أن نتساءل: ما هي وصفة الإصلاح المرجوة من هذه الطريقة الزائغة؟! هل ستتحول المكتوبات الآنفة إلى برامج تبث على الهواء؟!

ومن هنا نقول –إخماداً لهذه الفتنة –: يجب على دعاة الإسلام:

أولاً: السعي لإيقاف هذه القناة بكل الطرق المتاحة.

ثانياً: تبيين ضلال هذه الطريقة وإبراز مخالفاتها الظاهرة للشريعة.

ثالثاً: إبراز كلام أئمة أهل السنة قديماً وحديثاً في نقد الصوفية.

((فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)) [سورة هود:١١٦].

الإمـام الصنعـاني

قال الإمام محمد بن الأمير الصنعاني - رحمه الله - في كتابه الشهير: (تطهير الاعتقاد من أدران الإلحاد) يبين حال التصوف والصوفية:

أما المتسمون بالمجاذيب الذين يلوكون لفظ الجلالة بأفواههم، ويقولونها بألسنتهم، ويخرجونها عن لفظها العربي فهم من أجناد إبليس اللعين، ومن أعظم حمر الكون الذين ألبستهم الشياطين حلل التلبيس والتزيين؛ فإن إطلاق الجلالة منفرداً عن إخبار عنها بقولهم: (الله الله) ليس بكلام ولا توحيد، وإنما هو تلاعب بهذا اللفظ الشريف بإخراجه عن لفظه العربي، ثم إخلاؤه عن معنى من المعاني، ولو أن رجلاً عظيماً صالحاً يسمى بزيد وصار جماعة يقولون: (زيد زيد)؛ لعُد ذلك استهزاءً وإهانةً وسخرية، ولا سيما إذا زادوا إلى ذلك تحريف اللفظ.

ثم انظر: هل أتى في لفظة من الكتاب والسنة ذكر الجلالة بانفرادها وتكريرها؟ أو الذي في الكتاب والسنة هو طلب الذكر والتوحيد والتسبيح والتهليل، وهذه أذكار رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدعيته وأدعية آله وأصحابه خالية عن هذا الشهيق والنهيق والنعيق الذي اعتاده الذي من هو عن الله وعن هدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنته ودله في مكان سحيق.

ثم قد يضيفون إلى الجلالة الشريفة أسماء جماعة من الموتى، مثل: (ابن علوان) و (أحمد بن الحسين) و(عبد القادر) و(العيدروس)؛ بل قد انتهى الحال إلى أنهم يفرون إلى أهل القبور من الظلم والجور؛ كعلي رومان، وعلي الأحمر وأشباههما، وقد صان الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم وأهل الكساء وأعيان الصحابة عن إدخالهم في أفواه هؤلاء الجهلة الضلال، فيجمعون أنواعاً من الجهل والشرك والكفر.

فإن قلت: إنه قد يتفق من هؤلاء الذين يلوكون الجلالة ويضيفون عليها عمل أهل الخلاعة والبطالة خوارق عادات، وأمور تظن كرامات؛ كطعن أنفسهم بالآلات الحادة، وحملهم لمثل الحنش والحية والعقرب، وأكلهم النار، ومسهم إياها بالأيدي وتقلبهم فيها بالأجسام.

قلت: هذه أحوال شيطانيه، وإنك لملبس عليك إن ظننتها كرامات للأموات أو حسنات للأحياء، لما هتف هذا الضال بأسمائهم وجعلهم أنداداً وشركاء لله تعالى في الخلق والأمر، فهؤلاء الموتى أنت تفرض أنهم أولياء الله تعالى، فهل يرضى ولي الله أن يجعله المجذوب أو السالك شريكاً له تعالى وندًا؟! إن زعمت ذلك فقد جئت شيئاً إداً، وصيرت هؤلاء الأموات مشركين، وأخرجتهم - وحاشاهم ذلك- عن دائرة الإسلام والدين؛ حيث جعلتهم أنداداً لله راضين فرحين، وزعمت أن هذه كرامات لهؤلاء المجاذيب الضلال المشركين، التابعين لكل باطل، المنغمسين في بحار الرذائل، الذين لا يسجدون لله سجدة، ولا يذكرون الله وحده.

فإن زعمت هذا فقد أثبت الكرامات للمشركين الكافرين وللمجانين، وهدمت بذلك ضوابط الإسلام وقواعد الدين المبين والشرع المتين.

وإذا عرفت بطلان هذين الأمرين علمت أن هذه أحوال شيطانية، وأفعال طاغوتية، وأعمال إبليسية، يبعلها الشياطين لإخوانهم من هؤلاء الضالين، معاونة من الفريقين على إغواء العباد، وقد ثبت في الأحاديث أن الشياطين والجان يتشكلون بأشكال الحية والثعبان، وهذا أمر مقطوع بوقوعه، فهم الثعابين التي يشاهدها الإنسان في أيدي المجاذيب، وقد يكون ذلك من باب السحر، وهو أنواع، وتعلمه ليس بالعسير؛ بل بابه الأعظم الكفر بالله وإهانة ما عظمه الله من جعل مصحف في كنيف ونحوه.

فلا يغتر من يشاهد ما يعظم في عينية من أحوال المجاذيب من الأمور التي يراها خوارق؛ فإن للسحر تأثيراً عظيماً في الأفعال، وهكذا الذين يقلبون الأعيان بالأسحار وغيرها.

وهذه قصيدة أخرى للإمام الصنعاني يذم فيها أصحاب وحدة الوجود وعبد الكريم الجيلي

صاحب كتاب (الإنسان الكامل)، يقول فيها:

هذا كتاب كله جهل

وخلاف ما جاءت به الرسل

هذا كتاب كل داهية

فيه فلا عقل ولا نقل

قد ضل أقوام برؤيته

فغدوا وليس لدينهم ظل

هذا هو الإنسان ألفه
من لا يداني جهله البغل
مضمونه أن العباد هم
ذات الإله وهكذا الجهل
فالرب ذات العبد عندهم
فهو الوجود الدق والجل
قد قال سبحاني أوائلهم
وأنا الإله وكم وكم ضلوا
قالوا ومن عبد الحجارة قد
أضحى بما يأتي له الفضل
وعبادة الأوثان مكرمة
فيها يطيب القول والفعل
والسامري أصاب عندهم
إذ قال إن إلهه العجل
قالوا ومن شرب الخمور ومن
يأتي الذكور ففعله حل
قد حرفوا الذكر الحكيم وما
يتضمن الفرقان والنحل
قالوا العذاب عذوبة وكذا
نار الجحيم لهيبها ظل
قد خالفوا دين الإله فما
فيه لهم وبل ولا طل
وخلاصة التحقيق أنهم
قوم زنادقة فلا أغلو
قادوا إلى الإسلام فاقرة
وعليه سيف ضلالهم سَلُّوا
وأتوا بداهية يشيب لها
من شوم ما فاهوا به الطفل
وعلى الذي قد أسسوه بنا
قوم عليهم خندق الجهل
كم من غبي جاهل خدعت
ألفاظهم إذ عنده تحلو
لم يدر جهلاً أن باطنها
أن الشريعة ما لها أصل
يا للرجال أتجهلون هدى
وافى به القرآن والرسل
ودلائلاً قامت لدينكم
نادى بهن العقل والنقل

وقال رحمه الله تعالى:

ومن لأخيه قال يا كافر فقد
بها باء هذا أو بها باء من يبدي
وليس بهذا الكفر يصبح خارجاً
عن الدين فافهم ما أقرره عندي
وهذا به جمع الأحاديث والذي
أتى في كتاب اللّه ذي العز والمجد
بلى بعض هذا الكفر يخرج فاعلاً
له إن يكن للشرع والدين كالضد
كمن هو للأصنام يصبح ساجداً
وسابِّ رسول اللّه فهو أخو الجحد
وهذا الذي فصلته الحق فاتبع
طريق الهدى إن كنت للحق تستجدي
وجاء مثل هذا في النفاق وغيره
من الفسق والكفر الذي كله يُرْدِي
فإن قلت قد كفرت من قال إنه
إله وأن اللّه جل عن النِّدِّ
مسماه كل الكائنات جميعها
من الكلب والخنزير والقرد والفهد
مع أنه صلى وصام وجانب الت
وسع في الدنيا ومال إلى الزهد
فقلت استمع مني الجواب ولا تكن
غبياً جهولاً للحقائق كاللد
فإن الذي عنه سألت مجاهر
بنفي الإله الواحد الصمد الفرد

ونفي نبوءات النبيئين كلهم
فريقين هذا في جهنم نازل

فما أحمد الهادي لدى ذاك بالمهدي
وذلك مزفوف إلى جنة الخلد

وتصويب أهل الشرك في شركهم فما
ألا ليت شعري أي دار أزورها

أبو لهب إلا كحمزة في الجد
فقد طال فكري في الوعيد وفي الوعد

وهرون أخطا حين لام جماعة
إذا ما ذكرت الذنب خفت جهنماً

عكوفاً على عجل يخور ولا يهدي
فقال الرجا بل غير هذا ترى عندي

فإن لم يكن هذا هو الكفر كله
أليس رحيماً بالعباد وغافراً

فعقلك عقل الطفل زُمِّلَ في المهد
لما ليس شركاً قاله الرب ذو المجد

فقد كفر الشيخ ابن تيمية ومن
فقلت نعم لكن أتانا مقيداً

سواه من الأعلام في السهل والنجد
بما شاءه فافهم وعَضَّ هنا الأيدي

أولئك إذ قالوا الوجود بأسره
فهل أنا ممن شاء غفران ذنبه

هو اللّه لا رب يُمَيِّزُ عن عبد
فيا حبذا أم لست من ذلك الورد

وهذا مقال الفلاسفة الألى
هنا قطع الخوف القلوب وأسبل الـ

إلى النار مسراهم يقيناً بلا رد
دموع من الأبرار في ساحة الخلد

وألفي في هذا ابن سبعين كتبه
فأسأله حسن الختام فإنه

وتابعه الجيلي ويا بئس ما يبدي
إليه انقلابي في الرحيل إلى اللحد

ولكن أرى الطائي أطولهم يداً
ومغفرة منه ولطفاً ورحمة

أتى بفصوص لا تزان بها الأيدي
إذا ما نزلت القبر منفرداً وحدي

وجاء منهم ابن الفارض الشاعر الذي
وأرجوه يعفو كل ذنب أتيته

أتى بعظيم الكفر في روضة الوردي
ويغفر لي ما كان في الهزل والجد

أجاد نظاماً مثل ما جاد كفره
ويلحقنا بالمصطفى وبآله الـ

فسبحان ذي العرش الصبور على العبد
كرام كراماً والصحاب أولي الرشد

أنزهه عن كل قول يقوله
قصدت بهذا النظم نصح أحبتي

ذوو الكفر والتعطيل من كل ذي جحد
وأختمه بالشكر للّه والحمد

وأثني عليه وهو واللّه بالثنا
وصل على خير الأنام وآله

حقيق فقل ما شئت في الواحد الفرد
صلاة وتسليماً يدوما بلا حد

بديع السموات العلي خالق الملا
ورَضِّ على الأصحاب أصحاب أحمد

ورازقهم من غير كدٍّ ولا جهد
أولي الجد في نصر الشريعة والحد

بدا خلقنا من أرضه ويردنا
إليها ويخرجنا معيداً كما يبدي

أقوال علماء الأمة في دعاء غير الله

خضر بن جيلان العروسي

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحابته أجمعين.. أما بعد:

فقد بيّن الله تعالى في كتابه أوضح بيان حكم من دعا غير الله، وكرر ذلك في مواضع كثيرة وبأساليب متنوعة؛ وذلك لأن الشرك في الدعاء هو الأكثر وقوعاً من غيره من أنواع الشرك كما تقدم.

ومع وضوح هذا الحكم وضوح الشمس في رابعة النهار فقد وقع من بعض الناس التردد فيه، ومن آخرين تأويله، ومن غير هؤلاء الزعم بأنه خاص بمن مضى وغبر.

فلهذا أنقل كلام العلماء في هذه المسألة؛ لأن أولئك المترددين لا يقتنعون بمجرد الأدلة ولو كانت واضحة، إلا أن ينقل لهم من علماء المذاهب الفقهية، ظناً منهم أن الذين يعتنون بالكلام في مثل هذه المسائل من العلماء المتشددين، أو أنهم أتوا بمذهب جديد.

وهذا هو الذي اقتضى نقل كلام أهل العلم من فقهاء المذاهب وغيرهم؛ لبيان سبق هؤلاء العلماء إلى هذا المعنى، وأن من يؤكد على هذا ليس شاذاً، ولكن له سلف صالح، ولتحصل الطمأنينة والثقة لمن يريد معرفة الحق، وأما من يريد التمسك بمألوفاته وعاداته ولا يريد التحول إلى الحق ولو ظهر له بالأدلة الواضحة، فهذا لا يرجى انتفاعه بكلام أهل العلم؛ لقصده الفاسد، وإصراره على رأيه، وعدم تجرده للحق وحبه له.

وما على من يدعوه إلا بيان الحق وإقامة الحجة، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بيّنة.

أقوال علماء الحنفية:

لقد ذكر علماء الحنفية أموراً كثيرة وعدوها مما يخرج عن الملة، وهي أقل بكثير من دعاء غير الله تعالى، وغالب ما ذكروه ليس هناك نص صريح بخصوصه في التكفير من الكتاب والسنّة.

وقد علمنا كثرة النصوص القطعية المصرحة بالتكفير في دعاء غير الله تعالى؛ (بل لا نعلم نوعاً من أنواع الكفر والردة ورد فيه من النصوص مثل ما ورد في دعاء غير الله)، فمن باب أولى أن يقول هؤلاء الذين يكفرون بما هو أقل من ذلك: بكفر من دعا غير الله تعالى.

ومما يؤكد أن علماء الحنفية يكفرون بدعاء غير الله تعالى أنهم يتشددون في باب الأدعية، فقد حرموا التوسل المبتدع كما سيأتي النقل عنهم.

١- فمن ذلك قولهم: (من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم يكفر).

ودعاء غير الله تعالى يستلزم اعتقاد ذلك؛ إذ الداعي لو لم يعتقد سماع المدعو وعلمه بدعائه لما دعا ولا فتح فاه بالنداء والصراخ، وقد يقال: إن هذا من التكفير باللازم، ولا يكفر به؛ إذ لازم المذهب ليس بمذهب، فنقول جواباً لهذا وبالله التوفيق:

إن الصحيح في لازم المذهب أن ما كان من اللوازم يرضاه القائل بعد وضوحه له فهو قوله، وما لا يرضاه فليس بقوله، فلو قال قولاً ولزِمَ هذا القولَ لازمٌ فاسدٌ وهو لم يشعر بذلك، ففي هذه الحالة لا يلزمه، وأما ما لو ظهر له يرضاه فهو لازم له وهو قائل به.

إذا عرفنا هذا فالداعون لغير الله تعالى والمستغيثون بأصحاب القباب يلتزمون بهذا القول، وكثير منهم يعتقد حضور أرواح المشايخ.

٢- ومن ذلك قولهم: (من ادعى علم الغيب لنفسه أو صدق من يدعي ذلك كفر).

٣- ومن ذلك قولهم: (إن ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى واعتقد ذلك كفر).

٤- ومن ذلك قولهم: (إن الرجل إذا خرج يوم النيروز مع المجوس موافقة لهم فيما يفعلونه في يوم عيدهم، أو أهدى ولو بيضة إلى المجوسي في ذلك اليوم كفر؛ وذلك لأنه عظم عيد الكفرة أو تشبه بهم).

فإذا كان هذا قول العلماء فيمن عظّم يوم النيروز بنوع من التعظيم، فكيف بمن يعظم ما يعبد من دون الله كأصحاب القبور؟!

ومما لا شك فيه أن الذي عظم يوم النيروز لا يبلغ تعظيمه مبلغ المستغيث الواقع في الشدة، الذي ينادي ويستغيث بمن ينقذه، معظماً له وراجياً وخائفاً صارفاً له خالص تذلله وخضوعه، بل ومحبته له، فإذا كان علماء الحنفية يكفرونه بمجرد إهداء البيضة بدون أن يقوم بالقلب مثل ما يقوم بالمكروب المستغيث،

فمن باب أولى تكفيرهم للمكروب المستغيث!

٥- ومن ذلك قولهم فيما يفعله بعض النساء - وهو صريح فيما نحن بصدده- قالوا: (والذي شاع في زماننا- وكثير من نساء المسلمين مبتليات بذلك- هو أنهن في وقت طلوع الجدري للأطفال يفعلن صورة باسم ذلك الجدري ويعبدنها، ويطلبن منها شفاء الأولاد، ويعتقدن أن ذلك الحجر يشفي هذه الأطفال، فتلك النساء يصرن كافرات بهذا الفعل وبهذا الاعتقاد، وبرضا أزواجهن بهذا الفعل يصيرون كفاراً.

ومن هذا القبيل أنهن يذهبن إلى عين ماء ويعبدن ذلك الماء ويذبحن على ذلك الماء، شاة بالنية التي أضمرنها، فهاتيك العابدات للماء والذابحات يصرن كافرات، وتكون الشاة نجسة ولا يحل أكلها).

وهذه الأفعال مع دلالتها على كفر من دعا غير الله تعالى، يرد على أولئك الذين يزعمون أن الشرك لم يقع في هذه الأمة، أو يقولون: إن بعض العلماء المتشددين هم الذين تفردوا بالتكفير في مثل هذه المسائل.

٦- ومن ذلك ما قالوا في قولهم: (يا شيخ عبد القادر شيئاً لله): إنه كفر.

ففي هذه الكلمة نداء للشيخ عبد القادر وطلب شيء منه إكراماً لله، فهو سؤال وتوسل بالله إلى الشيخ عبد القادر.

وقد علل بعضهم منع هذه الكلمة بأنها تتضمن نداء الأموات من أمكنة بعيدة.

ومن اعتقد أن غير الله سبحانه وتعالى حاضر وناظر، وعالم للخفي والجلي في كل وقت وآن فقد أشرك، والشيخ عبد القادر مع شهرة مناقبه وفضائله لم يثبت شرعاً أنه كان قادراً على سماع الاستغاثة والنداء من أمكنة بعيدة، وعلى إغاثة هؤلاء المستغيثين، واعتقاد أنه- رحمه الله- كان يعلم أحوال مريديه في كل وقت ويسمع نداءهم، من عقائد الشرك.

وهذه الكلمة فيها الاستشفاع بالمخلوق على الله تعالى، وقد استعظم ذلك النبي صلى الله عليه وسلم عندما قال له الأعرابي: (إنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك، فقال: ويحك! إن شأن الله عظيم).

ومن علماء الحنفية الذين صرحوا بكون دعاء الأموات ونداءهم كفراً وشركاً، ونددوا بذلك وجاهدوا في سبيل ذلك: الشيخ محمد إسماعيل بن عبد الغني الدهلوي الشهيد، فمما قاله في رسالته المسماة: (رسالة التوحيد) أو (تقوية الإيمان) ما ترجمته: (نداءُ الأموات من بعيد أو قريب للدعاء إشراكٌ في العلم، وقال الله تعالى: ((وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)) [الأحقاف:٥]، وقد دلت هذه الآية على أن المشركين قد أمعنوا في السفاهة، فقد عدلوا عن الله القادر العليم إلى أناس لا يسمعون دعاءهم، وإن سمعوا ما استجابوا لهم، وهم لا يقدرون على شيء، فظهر من ذلك أن الذين يستغيثون بالصالحين الذين كانوا في الزمن السابق من بعيد، وقد يكتفي بعض الناس فيقولون: يا سيدنا ادع الله لنا يقضي حاجتنا، ويظنون أنهم ما أشركوا، فإنهم ما طلبوا منهم قضاء الحاجة وإنما طلبوا منهم الدعاء، وهذا باطل؛ فإنهم وإن لم يشركوا عن طريق طلب قضاء الحاجة فإنهم أشركوا عن طريق النداء، فقد ظنوا أنهم يسمعون نداءهم عن بعد كما يسمعون نداءهم عن قرب، وكان ذلك سواء في حقهم، ولذلك نادوا من مكان بعيد، مع أن الله سبحانه وتعالى قال: ((وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ)) [الأحقاف:٥]).

ولهذا الدهلوي الشهيد في تلك الرسالة عدة تصريحات بشرك من دعا غير الله واستغاث به.

ومن علماء الحنفية الذين صرحوا بذلك الشيخ محمود الألوسي المفسر، حيث قال: (إن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله تعالى من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم، مثل: يا سيدي فلان أغثني! وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه بذلك، وأن لا يحوم حول حماه، وقد عده أناس من العلماء شركاً، وإن لا يكنه فهو قريب منه، ولا أرى أحداً ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم الغيب أو يسمع النداء، ويقدر بالذات أو بالغير على جلب الخير ودفع الأذى، وإلا لما دعاه ولا فتح فاه، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)[1].

ومن علماء الحنفية المتأخرين الذين نددوا بدعاء غير الله تعالى وصرحوا بكفر فاعله: العلامة محمد سلطان المعصومي، فقد ألف رسالة مهمة جامعة لأقوال علماء الحنفية السابقين الذين حكموا بالكفر على من طلب المدد من غير الله واستغاث به وناداه من دون الله، وسمى رسالته: (حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد).

أقوال علماء المالكية:

لقد تشدد الإمام مالك - رحمه الله تعالى- في باب الدعاء، فمنع من قول الداعي: يا سيدي! وعدها من الألفاظ التي لم ترد في الكتاب والسنّة، وأمر بالالتزام في الأدعية باللفظ الوارد عن الأنبياء: يا رب يا رب!

فإذا كانت سيرته هكذا من الالتزام والتقيد في باب الدعاء بالوارد؛ فلا يمكن أن يجيز التوسل المبتدع؛ فضلاً عن أن يجيز دعاء غير الله تعالى ونداءه والاستغاثة به، واللهج بذكره في كل وقت وآن، فالذي يمنع من قول الداعي المخلص لله أن يقول لله تعالى: يا سيدي! فمن باب أولى وأحرى أن يمنع من قول الداعي: يا ولي الله فلان افعل لي كذا! فهذا ظاهر واضح.

ثم إن مالكاً - رحمه الله- كره الوقوف عند قبر النبي

صلى الله عليه وسلم للدعاء له أو الدعاء عنده[٢]، وكره لأهل المدينة التردد للسلام عليه، كما كره أن يقال: زرنا قبره صلى الله عليه وسلم.

فتحصل مما سبق أن الإمام مالكاً - رحمه الله- من أشد الناس محاربة للبدع، لاسيما في باب الدعاء، فمن هنا يفهم عدم تجويزه لما هو شرك من باب أولى، وعلماء مذهبه لا بد أنهم يتبعون منهجه في ذلك؛ فقد صرح بعضهم بما يفيد كفر من دعا غير الله تعالى، فممن صرح بذلك: القاضي عياض - رحمه الله تعالى- حيث قال: (إن كل مقالة صرحت بنفي الربوبية أو الوحدانية، أو عبادة أحد غير الله أو مع الله فهو كفر)[٣]، فقوله: (أو عبادة أحد غير الله أو مع الله) يدخل فيه من يدعو غير الله دخولاً أولياً؛ لأن الدعاء هو العبادة ولبها ومخها.

وقال القاضي أيضاً: (إن من نزع من الكلام لمخلوق بما لا يليق إلا في حق خالقه غير قاصد للكفر والاستخفاف، ولا عامد للإلحاد؛ فإن تكرر هذا منه وعرف به دل على تلاعبه بدينه، واستخفافه بحرمة ربه، وجهله بعظيم عزته وكبريائه، وهذا كفر لا مرية فيه)[٤].

وقد ذكر القرافي المالكي الأدعية التي تخرج عن الإسلام، وبعضها أقل بكثير مما نحن فيه، ثم قال: (فينبغي للسائل أن يحذر هذه الأدعية وما يجري مجراها حذراً شديداً؛ لما تؤدي إليه من سخط الديانة، والخلود في النيران، وحبوط الأعمال، وانفساخ الأنكحة، واستباحة الأرواح والأموال، وهذا فساد كله يتحصل بدعاء واحد من هذه الأدعية، ولا يرجع إلى الإسلام، ولا ترتفع أكثر هذه المفاسد إلاّ بتجديد الإسلام والنطق بالشهادتين، فإن مات على ذلك كان أمره كما ذكرناه، نسأل الله العافية من موجبات عقابه)[٥].

أقوال علماء الشافعية:

الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى- أحد أئمة السنة الذين حاربوا البدعة ونشروا السنة؛ فهو وإن لم نجد له نصاً صريحاً في الموضوع لعدم وقوع هذه المسألة في عصره؛ ولكن وجدنا له نصاً يستنبط منه مذهبه في الموضوع، وهو أن الشافعي قال: (من حلف باسم من أسماء الله فحنث فعليه الكفارة؛ لأن اسم الله غير مخلوق، ومن حلف بالكعبة أو بالصفا والمروة فليس عليه الكفارة؛ لأنه مخلوق، وذاك غير مخلوق).

فإذا كان الشافعي - رحمه الله- لا يرى الحلف بغير أسماء الله تعالى؛ فلا يعقل أن يجيز الدعاء بغير أسماء الله الحسنى، ولو كانت معظمة كالكعبة والصفا والمروة وأسماء الأنبياء.

وقد تبع الشافعي علماء مذهبه، وقد صرح بمنع مثل هذه الأدعية بعض متقدميهم.

فمنهم: إمام الأئمة ابن خزيمة - أحد كبار فقهاء المحدّثين ويعد من الشافعية[٦]- فإنه قال: (هل سمعتم عالماً يجيز أن يقول الداعي: أعوذ بالكعبة من شر خلق الله؟ أو يجيز أن يقول: أعوذ بالصفا والمروة، أو أعوذ بعرفات ومنى من شر ما خلق؟ هذا لا يقوله ولا يجيز القول به مسلم يعرف دين الله، محال أن يستعيذ مسلم بخلق الله من شر خلقه)[٧].

ومنهم: الإمام الخطابي الفقيه المحدث اللغوي؛ فإنه نقل كلام الإمام أحمد في عدم جواز الاستعاذة بالمخلوق فأقره[٨].

ومنهم: البيهقي، الذي قال فيه إمام الحرمين: (ما من شافعي إلا وللشافعي عليه في عنقه منة، إلا البيهقي فإنه له على الشافعي منة؛ لتصانيفه في نصرته لمذهبه وأقاويله).

فهذا الإمام البيهقي ذكر بعض أحاديث الاستعاذة بكلمات الله تعالى، ثم قال: (ولا يصح أن يستعيذ بمخلوق من مخلوق).

وممن صرح بكفر من دعا غير الله تعالى من علماء الشافعية: الإمام المقريزي الشافعي - رحمه الله- فإنه قال: (وشرك الأمم كله نوعان: شرك في الإلهية، وشرك في الربوبية، فالشرك في الإلهية والعبادة هو الغالب على أهل الإشراك، وهو شرك عباد الأصنام وعباد الملائكة وعباد الجن وعباد المشايخ والصالحين الأحياء والأموات، الذين قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، ويشفعوا لنا عنده، وينالنا بسبب قربهم من الله وكرامته لهم قرب وكرامة...).

وقال في زيارة القبور: إنها على ثلاثة أقسام: (قوم يزورون الموتى فيدعون لهم؛ وهذه الزيارة شرعية، وقوم يزورونهم يدعون بهم؛ فهؤلاء هم المشركون في الألوهية والمحبة، وقوم يزورونهم فيدعونهم أنفسهم؛ وهؤلاء هم المشركون في الربوبية).

ومنهم: الإمام أبو شامة الشافعي، فقد ذكر ما وقع من جهال العوام: من انتمائهم إلى طريقة الفقر والتصوف، واعتقادهم في المشايخ المتصوفة الضالين المضلين، ثم قال: (وبهذه الطرق وأمثالها كان مبادئ ظهور الكفر من عبادة الأصنام وغيرها)، ثم ذكر ما تفعله العامة من تخليق الحيطان والعمد، وإيقاد السرج على المواضع، يزعم أحدهم أنه رأى في المنام أحداً ممن اشتهر بالصلاح والولاية، إلى أن يصل بهم الحال إلى تعظيم تلك الأماكن ورجاء الشفاء فيها وقضاء الحوائج منها بالنذر، وهي مما بين عيون وشجر وحائط وحجر...

ومنهم ابن حجر الهيتمي الشافعي في شرحه لحديث الأربعين، فقد ذكر عند الكلام على حديث: (إذا سألت فاسأل الله) أن من اعتقد النفع والضر لغير الله كفر، وقد ألف كتاباً مستقلاً سماه: (الإعلام بقواطع الإسلام)، ذكر فيه أنواعاً كثيرة من الأقوال والأفعال، كل واحد منها ذكر أنه يخرج من الإسلام، وغالب ما ذكره لا يساوي عشر ما نحن فيه، وكثير مما ذكره أنه يخرج من الإسلام لم يرد فيه نص مثل ما ورد في دعاء غير الله تعالى من الأدلة الدالة على كفر مرتكبه.

أقوال علماء الحنابلة:

ممن صرح بكفر من دعا غير الله تعالى من علماء الحنابلة: الشيخ أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي - رحمه الله- فقد قال: (لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم عندي كفار لهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور، وإكرامها بما نهى عنه الشرع من إيقاد النيران، وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل لي كذا وكذا! وأخذ تربتها تبركاً، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر، اقتداء بمن عبد اللات والعزى...).

فقد صرح في هذا الكلام السابق بأن خطاب الموتى بالحوائج كفر.

وقد نقل هذا الكلام كثير من علماء الحنابلة وغيرهم فأقروه، فهم قائلون بما قاله ابن عقيل من كفر من خاطب الموتى بالحوائج.

وقال ابن عقيل أيضاً في الكلام على الصوفية: (وقد سمعنا عنهم أن الدعاء عند حدو الحادي... مجاب، اعتقاداً منهم أنه قربة، وهذا كفر أيضاً؛ لأن من اعتقد المكروه والحرام قربة كان بهذا الاعتقاد كافراً، والناس بين تحريمه وكراهيته)[٩].

فإذا كان ابن عقيل يكفر من اعتقد ذلك؛ فكيف بمن اعتقد استجابة الدعاء بواسطة الأولياء؟! فضلاً عمن دعاهم واستغاث بهم وناداهم سراً وجهاراً، واعتقد سماعهم وعلمهم به وبما هو فيه؛ فهذا بلا شك أشد كفراً ممن ذكره ابن عقيل - رحمه الله- فمقتضى قوله أنه يكفر هؤلاء من باب أولى وأحرى.

ومنهم: شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله- فقد حكى الإجماع على كفر من جعل الواسطة بينه وبين الله يدعوهم ويتوكل عليهم، وأنه نقله كثير من علماء الحنابلة وغيرهم فأقروه.

وقال شيخ الإسلام أيضاً: (فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يدعوه من دون الله، مثل أن يقول: يا سيدي فلان أغثني، أو أجرني، أو أنت حسبي، أو أنا في حسبك، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل)[١٠].

ومنهم: ابن القيم - رحمه الله- فمن أقواله ما ذكره في مدارج السالكين في باب التوبة بقوله: (ومن أنواعه- أي: الشرك- : طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، فضلاً عمن استغاث به وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها...)، وذكر - رحمه الله تعالى- زيارة القبور الزيارة الشرعية للدعاء لهم والترحم عليهم والاستغفار، ثم قال: (فأبى المشركون إلا دعاء الميت والإشراك به، والإقسام على الله به، وسؤاله الحوائج، والاستعانة به والتوجه إليه، بعكس هديه صلى الله عليه وسلم؛ فإنه هدي توحيد وإحسان إلى الميت، وهدي هؤلاء شرك وإساءة إلى نفوسهم وإلى الميت)[١١].

وذكر - رحمه الله- أنه يجب على الإمام هدم الأمكنة التي يعصى الله فيها، فذكر مسجد ضرار، ثم قال: (فمشاهد الشرك التي تدعو سدنتها إلى اتخاذ من فيها أنداداً من دون الله أحق بالهدم وأوجب)[١٢].

ومنهم: الحافظ ابن عبد الهادي - رحمه الله- فإنه قال ما ملخصه: إن المبالغة في تعظيم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحج إلى قبره، والسجود له والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين، ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء؛ فهذه المبالغة مبالغة في الشرك وانسلاخ من ذمة الدين[١٣].

ومنهم: الحافظ ابن رجب - رحمه الله- فإنه قال: (إن قول العبد: لا إله إلا الله، يقتضي أن لا إله له غير الله، والإله هو الذي يُطاع فلا يعصى، هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاء له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: لا إله إلا الله، ونقصاً في توحيده، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك، وهذا كله من فروع الشرك)[١٤].

الهـــوامش

(١) روح المعاني (٦/ ١٢٨).
(٢) الشفا للقاضي عياض (٢/ ١٠٦٥- ١٠٦٦).
(٣) المصدر السابق (٢/ ١٠٩٣).
(٤) الفروق للقرافي (٤/ ٢٦٥).
(٥) طبقات الشافعية للسبكي (٣/ ١٠٩).
(٦) كتاب التوحيد (١/ ٤٠١- ٤٠٢).
(٧) معالم السنن (٤/ ٣٣٢- ٣٣٣).
(٨) تلبيس إبليس (ص: ٣٧٣).
(٩) الشفا للقاضي عياض (٢/ ٦٧١)، نقلاً عن المبسوط لإسماعيل القاضي، والمنتقى للباجي (١/ ٢٩٦)، والرد على الأخنائي (ص: ٤٦، ١٠٤)، والجواب الباهر: (ص: ٥٩، ٦٥)، والصارم (ص: ١٢٥)..
(١٠) الوصية الكبرى إلى الشيخ عدي ضمن الفتاوى (٣/ ٣٩٥)، وعنه الشيخ محمد بن عبد الوهاب في الرسائل الشخصية (ص: ١٧٧)، ومفيد المستفيد (ص: ٢٩١).
(١١) زاد المعاد (١/ ٥٢٧).
(١٢) زاد المعاد (٣/ ٥٧١، ٥٠٧).
(١٣) الصارم المنكي (ص: ٣٥١).
(١٤) كلمة الإخلاص وتحقيق معناها (ص: ٢٣- ٢٤).

الشخصية الصوفيـــة

بسام السيد

مقدمة:

غني عن البيان أن المجتمعات الإسلامية في فترة من فترات تاريخها وحتى وقت قريب سيطرت عليها الطرق الصوفية بصورة تكاد تكون شبه كاملة، حتى غدا الدين في حس أفراد المجتمع هو التصوف، وكان من نتاج ذلك أن أصبحت الشخصية المسلمة يتم إنتاجها من خلال هذه المنظومة الثقافية المسيطرة على مجتمعاتنا، وهي في حقيقتها منظومة تمجد وتعلي من شأن الخرافة والأوهام والأساطير، ولا زالت الشخصية المسلمة المعاصرة تحمل بعض الجراثيم التي ورثتها من تلك الحقبة، ومن ثم كانت الخطوة الأولى في سبيل بناء الشخصية المسلمة المعاصرة هو تخليتها من الأمراض التي ما زالت تعاني منها قبل إعادة الصياغة، يقول الإمام ابن القيم رحمه الله:"قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان هو في الاعتقادات والإرادات" (١)، لذلك فنحن نعتبر أن دراسة الشخصية الصوفية بانحرافاتها هو سبيل يمهد لإعادة صياغة الشخصية المسلمة المعاصرة وفق المنهج القرآني.

والشخصية الصوفية هي نتاج الثقافة الذي نشأت فيها بإمتياز، بمعنى: أنها ليست شخصية عفوية، وإنما هي شخصية ترزح تحت إكراهات التصورات والأوهام والعقائد الصوفية.

وكما يقول علماء النفس: "إنّ شخصيّة الفرد تنمو وتتطوّر من جوانبها المختلفة داخل الإطار الثقافي الذي تنشأ فيه وتعيش، وتتفاعل معه" (٢)، نعم.. ليست الأفكار والثقافات فقط هي التي تؤثر في بناء شخصية الإنسان؛ فهناك جوانب أخرى؛ غير أن الأفكار أو الثقافات مسئولة عن الجزء الأكبر من محتوى الشخصيّة، وهذا الأمر أكثر ما يصدق على أتباع الطرق الصوفية.

ويمكن للباحث المدقق من خلال استعراض سير بعض أقطاب الصوفية وترجمات رجالاتها التوصل لمجموعة

من السمات العقلية والسلوكية والنفسية والجسمية التي يوصف بها المتصوف، والتي هي من تأثير ثقافته ويتميز بها عن غيره، وهي سمات ثابتة نسبياً وقابلة للتنبؤ، مما يعني قدرتنا على تكوين نموذج نمطي للشخصية الصوفية.

جوانب الشخصية الصوفية:

تتركز أبعاد أي شخصية في أربعة جوانب يمكن إجمالها فيما يلي: الجانب العقلي.. الجانب النفسي.. الجانب السلوكي.. الجانب الجسماني.

وسوف نفصل كلاً من هذه الجوانب الأربعة فيما يخص الشخصية الصوفية.

أولاً: الجانب العقلي:

تغييب العقل:

الاتجاه العام لدى الصوفية هو: الابتعاد عن العقل؛ وذلك لأنهم يرون أنه لا يمكن الوصول إلى الأحوال والمقامات العالية إلا بإلغاء العقل؛ ولذلك يذكرون حوادث لمشايخهم ويقررون أموراً يأباها العقل بل يكذبها.

ونتيجة لهذا يقول الإمام الشافعي وقد أدرك بدايات التصوف: "لو أن رجلاً تصوف أول النهار لا يأتي الظهر حتى يصير أحمق".

وتغييب العقل عند الصوفية له أسباب عدة:

١- منهج التلقي:

فللصوفية بشأن مصادر التلقي حديث يتجاوز الكتاب والسنة إلى الإلهام والوحي المزعوم للأولياء والهواتف، والاتصال بالجن الذين يسمونهم: الروحانيين.. ويتجاوز إلى عروج الروح إلى السماوات.. ويتجاوز إلى الفناء في الله، وانجلاء مرآة القلب حتى يظهر الغيب كله للولي الصوفي حسب زعمهم! ويتجاوز إلى الكشوف والمشاهدات والتجليات.. ويتجاوز إلى ربط القلب بالرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يستمد العلوم منه مباشرة صحواً أو في المنام.

فتلقي الدين عند الصوفية يقوم على ما يسمى: الباطن، والكشف، والذوق، والحقيقة، وهي مصطلحات يقصد بها ما وراء الأحكام من إشارات وأسرار، وهذا قول عامتهم، أما شيوخهم فيسقطون عن أنفسهم التكليف وإنما دينهم حسب أهوائهم.

"فالصوفي عدو للعقل فوق عداواته للشرع، والعقل عندهم طاغوت أخرق، أما الشرع فمادية تنشب مخالبها في الصخر دون أن ترمق السماء بنظرة واحدة! أو هو نوع من عبادة التاريخ الميت"(٣).

ولهذا تتباين في منظورهم قيم الأشياء وحقيقتها تبعاً لتباين الأذواق! وقد يرى الصوفي في أمر أنه الباطل، فيما يرى غيره من الصوفيين فيه الحق! ولا يضيرهم أن يتوتر التناقض بين ما يؤمن به صوفي ويكفر به آخر غيره، فكلاهما في الدين صوفي على حق.

وتنكر الصوفية على العقل أنه وسيلة إلى المعرفة، ويرهقها حنقاً من أن يحكم بالمغايرة بين الضدين، أو بين النقيضين، وتنكر على الشرع تفرقته بين الإيمان والكفر، أو الخير والشر؛ إذ لا تؤمن بغير (الذوق).

فالصوفي "لا يقنع بالحقيقة التي يتم الوصول إليها عن طريق العقل بإيجاد الروابط والعلاقات بين الأشياء، وإنما يبحث دائماً عما وراء الشيء، وأثناء هذا البحث يقوم هو نفسه بصناعة هذه الحقيقة؛ لأن الفراغ العقلي لا بد أن يملأ بتهيؤات مما يبحث عنه المتصوف، حسب قانون الامتلاء في علم النفس، ولهذا نجد أن الكشف الذي يتحدث عنه الصوفيون إنما يتم في الظلام، حيث يجد الذهن مساحته الفراغية لملئها بما يحتاج إليه، فيتوهم ظهور الأخيلة والأشخاص والخضر والرسول صلى الله عليه وسلم عياناً، وهذه حال ممكنة جداً، فكلما كان العطش النفسي إلى الرؤية قوياً - وهي حالة المتصوف- وكلما توفرت الظروف الملائمة؛ كالظلام، والهدوء، وإماتة الحواس بالذكر المزعوم؛ كلما استطاع الذهن ابتكار الصور الذهنية التي يبحث عنها المتصوف ويتشوق إلى رؤيتها.

وبسبب هذا كانت المعرفة الصوفية التي أنتجها العقل الصوفي - إن جاز لنا استخدام لفظي: المعرفة والعقل لوصف هذه الخرافات- معرفة فوضوية، يختلط فيها كل شيء بكل شيء.. الدين بالجغرافيا.. والسحر بالقرآن.. والفقه بالروحانيات.. والغيب بالدجل.. وكل شيء بكل شيء، دون حدود ودون ضوابط، حتى أصبح العلم الصوفي ممكناً في لحظة حلم قصيرة، في شكل مضخم، وكأن العلم سلعة من السلع، أو بضاعة من البضائع"(٤).

لذلك كان من السهولة على الشخصية الصوفية تقبل الشطحات والخرافات، والإيمان بها والدفاع عنها؛ بل إن تعاطي الصوفي مع المواقف هو في حقيقته تعاطٍ خرافي يقوم على الدجل والشعوذة والأوهام؛ فهي تعطي للظواهر أسباباً خارجةً عنها، كما أنها مفتقدة للقدرة على الربط بين المعطيات والنتائج.

إن من السمات البديهية لعمل العقل السوي: هو الربط والمقارنة، وتسجيل نقاط الشبه ونقاط الاختلاف في الصور التي تنطبع على الدماغ، وهذا جله يتم تلقائياً بدون إرادة واعية حتى عند الطفل في المهد، وهذه السمة تتطور وتنمو مع الإنسان من خلال تراكم خبرته الطبيعية وتعلمه وثقافته؛ لكن عمل العقل هذا عطل لدى المتصوفة بحكم الخرافات والأوهام والخيالات والشطحات التي تتم تنشئتهم عليها؛ بل بحكم عداوتهم للعقل نفسه.

٢- الغلو في الصالحين والشيوخ:

حيث غالوا في أئمتهم، وأخذوا يقدمونهم للناس بصورة تخرج بهم عن المستوى الإنساني إلى المستوى النبوي والإلهي، وقالوا: إن الاتصال بالله ليس مقصوراً على الأنبياء؛ بل هو باب مفتوح في وجه الأئمة أيضاً، وذلك من خلال فكرة (الحلول)، بمعنى: أن جزءاً من الله يحل في الإمام، وبه يعلم ما سيحدث! وهذا ما يرفعه إلى درجة الألوهية!

ولم يقف الصوفية عند هذا الحد من منح الألوهية لأمثال هؤلاء؛ بل غلوا فيهم حتى جعلوا فيهم شيئاً من صفات الربوبية، وأنهم يتصرفون في الكون، ويعلمون الغيب، ويجيبون من استغاث بهم بطلب ما لا يقدر عليه إلا الله، ويسمونهم: الأغواث، والأقطاب، والأوتاد، يهتفون بأسمائهم في الشدائد، وهم أموات أو غائبون، ويطلبون منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، وأضفوا عليهم هالة من التقديس في حياتهم، وعبدوهم من دون الله بعد وفاتهم.

وينبغي على المريد أن يفنى في الشيخ، ويلغي نفسه وعقله تماماً في حضرته مع شيخه، أو ما يطلق عليه: فناء إرادته كلياً في إرادة شيخه، يقول الشعراني: (اعمل أيها المريد على أن تتحد بشيخك، فيكون ما عنده من المعارف عندك على حدّ سواء، ويكون تميزه عليك إنما هو بالإضافة لا غير.. قال: وقد قال لي الشيخ أبو الحسن الشاذلي يوماً: يا أبا العباس! ما صحبتك إلا لتكون أنت أنا وأنا أنت) (٥).

ولما كان الأئمة في هذه المنزلة العظيمة المحاطة بدفعات من الهالات والتقديس كان من البديهي للمريد - دون أن يشعر- أن يلغي عقله وكيانه وروحه ويسلمها للإمام منساقاً وراءه دون وعي أو إرادة.

يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله- : "والعبارة الشائعة في كتب التصوف: أن المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي غاسله!! وهم يعنون بذلك الطاعة المطلقة، إلا أن هذه الطاعة الغريبة محقت الإرادة الحرة والتفكير الحر معاً"(٦).

ومسألة إلغاء العقل تماماً في حضرة الشيخ صارت من المظاهر التي اقترنت باستمرار بالحركة الصوفية في مختلف أطوارها، وأصبحت سمة ملتصقة بالطرق الصوفية جميعاً، وأصبح تغييب العقل من آداب ولوازم هذه العلاقة بين الشيخ والمريد.

٣- تأثر الصوفية بأساطير وخرافات وفلسفات الأمم الأخرى:

ارتبط الفكر الصوفي في كثير من تصوراته بفلسفات وأساطير وخرافات الأمم الأخرى، لهذه حيث تجد لكثير من الخرافات الموجودة لدى الأمم الأخرى مثيلاً لها عند المتصوفة؛ بل هم يقرون بنقلهم لهذه الأساطير والخرافات واستفادتهم منها، فيذكر ابن كثير عن الحلاج: أنه "قصد إلى الصين والهند في رحلة طويلة طوَّر فيها أفكاره الصوفية، وراض نفسه على التصوف الهندي، وتعلم الشعبذة والسحر هناك وقال:أدعو به إلى الله!"(٧).

وكذلك نجد ابن سبعين - وهو من دعاة التصوف الكبار- قد تأثر بالفكر الهرمسي- ويقصد به العودة إلى القديم، والاستعانة بالسحر والتنجيم والكيمياء في الوصول إلى المعرفة أو

الكشف - وعمل على نشره في أوساط المسلمين، حيث يقول في مقدمة كتابه (بُدُّ العارف): "أما بعد: فقد استخرت الله العظيم على إفشاء الحكمة التي رمزها هرامسة الدهور الأولية" (٨)، ويقول الدكتور إبراهيم هلال: ((إن بعض العقائد الهرمسية يمكن أن نراها كثيراً في الكتابات الصوفية عن الكون، وخاصة تلك التي كتبها ابن عربي، وكتابات معظم ممثلي المدرسة الصوفية البارزين مثل صدر الدين القنوي، وعبد الكريم الجيلي، وابن توركاه الأصفهاني، وابن أبي جهور))(٩).

كما نقل الصوفية عن الرهبانية المسيحية وأخذوا عنها كثيراً من شطحاتهم وخرافاتهم؛ بل إن ممارسات الصوفية وما آلت إليه أوضاع المتصوفة هي صورة مكررة للرهبنة المسيحية في أدق تفاصيلها.

يقول (آسين بلاثيوس، ونيكلسون): بأن ترك الدنيا ومعنى التوكل جاء في التصوف من المسيحية، ونص (فون كريمر) على أن الزهد الصوفي نشأ بتأثير من الزهد المسيحي، وقال (جولد زيهر): وقد حاكى هؤلاء -أي: المتصوفة- نساك النصارى ورهبانهم.

بل التزام الصوفية لبس الصوف وجعله شعاراً لهم هو مأخوذ من رهابنة المسيحية؛ لأنه كان زيهم الخاص، فقد نقل الشعراني عن سهل التستري حكاية باطلة غريبة تدل على تأثر الصوفية بالمسيحية في زيهم، وهذا هو نصها: أن سهل بن عبد الله التستري كان يقول: (اجتمعت بشخص من أصحاب المسيح عليه السلام في ديار قوم عاد، فسلمت عليه، فرد علي السلام، فرأيت عليه جبة من صوف فيها طراوة، فقال لي: إن لها علي من أيام المسيح، فتعجبت من ذلك.

فقال: يا سهل! إن الأبدان لا تخلق الثياب، إنما يخلقها رائحة الذنوب، ومطاعم السحت، فقلت له: فكم لهذه الجبة عليك؟ فقال: لها سبعمائة سنة).

ونقل الإمام ابن تيمية عن أبي الشيخ الأصبهاني عن إسناده أن ابن سيرين بلغه أن قوماً يفضلون لباس الصوف فقال: " إن قوماً يتخيرون الصوف يقولون: إنهم متشبهون بعيسى بن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبس القطن وغيره"(١٠).

وكذلك تأثرت الصوفية بالبوذية فيما تعرضه من ترهات تخالف العقل.. فهجر الأهل والأولاد، والخروج إلى الغارات والجبال، والجلوس في البراري والحفرات والسراديب، والمكوث مع الحيات والثعابين.. ليست منقولة إلا من الديانات الهندية التي عرفت واشتهرت بمثل هذه الأمور، وقصة إبراهيم بن أدهم - كما يوردها الصوفية- من تركه للأهل والأولاد والملك تتشابه في تفاصيلها مع قصة بوذا وحياته.

أيضاً: التسول والاستجداء، والوقوف على أبواب الناس، وحمل المخلاة والكشكول من لوازم الديانة البوذية، ومن نصائح بوذا الثمان المشهورة التي نصح بها دراويشه ورهبانه، كما أنه ألزمهم سير البراري، وقطع الصحاري، أو المكوث في الخانقاوات، والانشغال فيها بالذكر، ولقد أخذت الصوفية هذا النظام بكامله من البوذية، وألزموا أنفسهم به، كأنهم هم الذين نصحهم بوذا بذلك، يقول الطوسي: (الأكل بالسؤال أجمل من الأكل بالتقوى)، وقال: (كان بعض الصوفية ببغداد لا يكاد يأكل شيئاً إلا بذلّ السؤال)، ونقل السهروردي عن إبراهيم بن أدهم أنه كان معتكفاً بجامع البصرة مدة، وكان يفطر في كل ثلاث ليال ليلاً، وليلة إفطاره يطلب من الأبواب.

أيضاً: مما تأثر به الصوفية: ملازمة الصمت، وهي من العادات البوذية كما يظهر من تماثيل بوذا، فقد ذكر الشعراني عن سيده البدوي أنه لازم الصمت، وما كان يكلم الناس إلا بالإشارة، وكذلك ذكر الشعراني أيضاً عن سيده عبد الرحمن المجذوب أنه كان ثلاثة أشهر يتكلم، وثلاثة أشهر يسكت (١١).

والخلاصة: أن كثيراً من آراء التصوف وممارساته جاءت وليدة الأفكار المختلطة من الرهبانية المسيحية، ومن المانوية، والمجوسية، والمزدكية، وكذلك الهندوكية والبوذية، يقول الشيخ عبد الرحمن عبد الخالق: "التصوف بحر من القاذورات؛ فقد جمع المتصوفة كل أنواع الكفر والزندقة التي توجد في فلسفات الهند وإيران واليونان، وكل مكر القرامطة والفرق الباطنية، وكل خرافات المخرفين، وكل دجل المدجلين، وكل وحي الشياطين، ووضعوا كل ذلك في إطار التصوف وعلومه ومبادئه وكشوفه" (١٢)، الأمر الذي قضى على البقية الباقية من عقل المتصوفة.

٤- اعتزال الناس وتعذيب النفس:

فالسهر الطويل، والجوع الشديد، والاعتزال في البيوت المظلمة، والصمت الطويل، وعدم التزوج، والعيش في البراري والصحاري والقفار، واتخاذ مثل ذلك نمطاً للحياة لسنوات طويلة.. يعد سلوكاً سلبياً يؤدي إلى فساد التصور، واختلال التفكير، واضطراب في السلوك، وتعطيل الملكات.

فالإنسان بطبعه مخلوق اجتماعي، يميل إلى العيش وسط جماعة يشعر بينها بالأمن والاستقرار والطمأنينة، تشبع حاجته إلى الانتماء، وتبرز شخصيته من خلالها، وتتشكل إلى حد كبير، وتساهم علاقاته اليومية مع المجموع في تراكم خبراته ونمو عقله، كما التفاعل الإيجابي يشغل الإنسان عن كثير من الوساوس السيئة.

فالانزواء والانسحاب الاجتماعي والعزلة لفترات طويلة تعطل الإنسان عن اكتساب خبرات، وتوقف التطور العقلي الطبيعي، وقد تورث الإنسان تخيلات وتوهمات تظل ملازمة له؛ خاصة إن صاحبها انعدام للمعاش وتعذيب للذات.

وخلوات الصوفية واعتزالهم وتعذيبهم لأنفسهم أشهر من أن

توصف؛ بل إن الخلوة والاعتزال ظلت مرادفة في أذهان الكثيرين للتصوف، قال الشعراني في ترجمة الشيخ أبي علي: (كان هذا الشيخ من كُمّل العارفين.. مكث نحو أربعين سنة في خلوة مسدود بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء)، وقال المناوي في ترجمة أبي يعزي: (لزم البراري والقفار خمس عشرة سنة)، ويذكر أحد الصوفية القدامى الهجويري عن أبي عثمان المغربي:(أنه في بداية حاله اعتزل عشرين سنة في البوادي بحيث لم يكن يسمع آدمياً، حتى ذابت بنيته من المشقة، وصارت عيناه كسَمّ الخياط، وتحول عن صورة الآدميين)، ونقل الطوسي عن أبي عبد الله الصبيحي أنه:(لم يخرج ثلاثين سنة من بيت من تحت الأرض)، ويروى عن صوفي مشهور يدعى (فريد الدين) الملقب بكنج شكر أنه (علّق نفسه معكوسة في بئر، ولم يزل على هذه الحال أربعين سنة لم يأكل ولم يشرب شيئاً)،

ويذكر الطوسي والقشيري والعطار والهجويري والغزالي والشعراني وغيرهم: (أن الشبلي كان يكتحل بالملح ليعتاد السهر ولا يأخذه النوم، وأحياناً كان يحمي الميل فيكتحل به)، وذكر عن صوفي هندي خضر سيوستاني القادري أنه (كان يسكن في المقابر، ولا يلبس إلا رداء واحداً، وكان يأكل العشب وأوراق الأشجار، وكان له ثور يحميه ويتعبد فيه، وكانت حيوانات البادية تجالسه وتأوي إليه، وكان يتعبد في فصل الصيف على حجر حارّ خصّه لنفسه)، ورواياتهم وقصصهم في ذلك كثيرة.

وقد ذكر في الإحياء: كيف يترقى الإنسَان لينتقل من كونه من أصحاب توحيد العامة (من أصحاب الشريعة) إلَى أن يكون من أصحاب الحقيقة، يقول: ((إما أن يذهب إلَى جبل أو إلَى مغارة يختبئ فيها ويذكر الله حتى يأتيه الكشف، فإن لم يستطع فليأخذ كساء أسود غليظاً ويلفه عَلَى رأسه، وبهذا يكون قد اختلى، ويظل يردد ويقول: الله الله الله وغيرها من الأذكار حتى يأتي الكشف"(١٣).

ويحكي المناوي عن قطب من أقطاب الصوفية - وهو سيد البدوي- قائلاً: إن السيد البدوي أصله من بني بري، وهي قبيلة من عربان الشام، وعرف بالبدوي للزومه اللثام، ولم يتزوج، واشتهر بالعطاب لكثرة عطبه من يؤذيه،

ثم لزم الصمت فكان لا يتكلم إلا بالإشارة، وكان يمكث أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وأكثر أوقاته شاخصاً بصره نحو السماء، وعيناه كالجمرتين.

٥- عوامل مجتمعية ساهمت في تغييب العقل لدى الصوفية:

نشأ التصوف في أوضاع اجتماعية وسياسية تشهد حالة من الفوران داخل المجتمع الإسلامي، حيث كان الفكر الاعتزالي لتوه قد خاض معركة شرسة مع أهل السنة والجماعة، وكان من نتائج هذه المعركة التي انتصر فيها أهل السنة بقيادة الإمام (أحمد بن حنبل)، أن ظهرت حركات فكرية ومذاهب هي في حقيقتها رد فعل منحرف لانحرافات المعتزلة الذين يمجدون العقل ويقدمونه على كافة طرق المعرفة في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، وكانوا يحكمون بحسن الأشياء وقبحها عقلاً، فقالوا - كما جاء في الملل والنحل للشهرستاني- : "المعارف كلها معقولة بالفعل، واجبة بنظر العقل، وشكر المنعم واجب قبل ورود السمع، أي: قبل إرسال الرسل"، ونتيجة لهذا الغلو في التعامل مع العقل ظهر غلو آخر في اتجاه معاكس تماماً يلغي العقل تماماً، مثلما ظهر عند المتصوفة.

ومع تطور التصوف كانت المدارس الفقهية قد اكتملت، وأغلق باب الاجتهاد، ومع الوقت صارت المقررات الفقهية جامدة عبارة عن متون وحواشٍ تستغلق على عقول الكثيرين، مما ساهم في ضعف مانة الفقهاء والعلماء، وينفر العامة من علومهم ويتجهوا نحو المتصوفة، حيث راحة العقول من تعقيدات الحواشي والمتون.

عامل آخر ساهم في موقف الصوفية من العقل: هو انتشار التشيع، وكثير من الدارسين والمتخصصين يؤكدون أن التصوف خرج من رحم التشيع، وأنهما وجهان لعملة واحدة، ومن ثم فقد ورثت الصوفية ترهات وخرافات وأوهام التشيع، ثم أضافت إليها وأعادت صياغتها من جديد بما يناسب عوام الناس ويخدعهم.

- الجذبة الصوفية أو الفصام:

بعض الدارسين في المجال النفسي والاجتماعي يلصقون الفصام بالجذبة الصوفية، ورغم اعتراض البعض على هذا الأمر باعتبار أن هذه أمراض عصابية لها أسبابها التي تختلف عن حالات الجذب أو الجنون التي يصاب بها بعض المتصوفة؛ "إلا أن المهتمين بالدراسات النفسية والاجتماعية يرون أن الباحث في مثل تلك الحالات النفسية والعصابية ليس من شأنه الاهتمام بالأسباب أو العوامل المنشئة لها، وإنما ينحصر همه وقصده في دراسة المظاهر الخارجية البادية على الأفراد"(١٤).

والمظاهر المصاحبة للجذبة الصوفية مثل: الجنون المؤقت، وحالات الإغماء، والاستغراق في أحلام اليقظة (الفنطاسيات) - وادعاء الخوارق والشعبذة- انفعالات غير طبيعية.

وكتب الصوفية وطبقاتهم تطفح بأخبار وحالات المجاذيب والدراويش، ويعتبرونها الغاية من الطريقة؛ بل أصبحت لفظة (المجذوب) و(الدرويش) مرادفة للفظة (متصوف).

يذكر الشعراني عن إبراهيم بن عصيفير: " كان يغلب عليه الحال، وكان يمشي أمام الجنازة ويقول: زلابية و هريسة، وأحواله غريبة ".

وقال أيضاً في الطبقات (٢/١٤٤): ((ومنهم سيدي سعود المجذوب رضي الله عنه، كان رضي الله عنه من أهل الكشف التام، وكان له كلب قدر الحمار لم يزل واضعاً بوزه (فمه) على كتفه)).

وقال أيضاً في الطبقات (٢ ـ ١٨٥): ((الشيخ شعبان المجذوب

رضي الله عنه، كان من أهل التصريف بمصر المحروسة)).

وقال في (٢/ ٨٧) طبعة دار العلم للجميع: ((الشيخ حسين أبو علي رضي الله عنه، كان هذا الشيخ رضي الله عنه من كمل العارفين وأصحاب الدوائر الكبرى، وكان كثير التطورات، تدخل عليه بعض الأوقات تجده جندياً، ثم تدخل فتجده سبعاً، ثم تدخل فتجده فيلاً، ثم تدخل فتجده صبياً.. وهكذا، ومكث أربعين سنة في خلوة مسدودة بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء))، وهذا غيض من فيض، وإلا فكتب المتصوفة مليئة بهذه القصص.

- ثانياً: الجانب النفسي:

للجانب النفسي دور أساسي ومحوري في بناء الشخصية الصوفية؛ ففي ظل غيبة العقل وتعطيله - باعتباره لا يمكنه الوصول إلى الأحوال والمقامات العالية- اعتمد الصوفية على الجانب النفسي للعروج إلى هذه المقامات؛ لذلك تعتبر النفس هي محور اهتمام الصوفي؛ بل إن سبيل المعرفة لدى المتصوفة من ذوق وكشف ووحي وإلهام هي كلها جوانب نفسية، وهذا ما يفسر اهتمام بعض المتصوفة المعاصرين بالدراسات النفسية.

لكن هذه المغالاة في التركيز على الجوانب الجوانية لدى المتصوفة لم تتمكن من بناء نفسية المتصوف بصورة صحيحة؛ بل على العكس هذه المغالاة ولدت اضطرابات نفسية لدى الشخصية الصوفية؛ لأنها انحرفت بالشخصية عن طبيعتها البشرية التي هي امتزاج بين الروح والجسد والعقل.

هذا بجانب أن المتصوفة لم يستندوا في اهتمامهم بالجانب النفسي على منهج صحيح يستطيعون من خلاله صياغة شخصية تتسم بالصحة النفسية، وإنما عمدوا إلى تعذيب الجسد من خلال ما يسمونه: بالرياضات؛ من جوع، وعطش، وصمت، وسهر، وتجنب الزواج، والعيش في البراري والصحاري والقفار والمزابل.. وغيرها؛ الأمر الذي شكل ضغوطاً نفسية كبيرة عليهم انتهت بكثير منهم إلى الاكتئاب، ولم يقتصر الأمر على ذلك، فمع تعذيب النفس ينظر المتصوف إلى ما يقوم به من أعمال باحتقار شديد وازدراء؛ لأن احتقار ما يقوم به من أعمال شرط للوصول ومن المعروف أن عدم ركون الإنسان لأعماله أمر محمود شرعاً بل هو من الواجبات، لكن المغالاة في ذلك الأمر والتيئيس، والاعتقاد أنه مرذول عند الله، وأنه مهما أفرغ وسعه في الطاعات والنيات والقربات لن يتقبلها الله، أدى إلى إصابة كثير من المتصوفة بإحباط جعل بعضهم يبحثون عن النشوة والغيبوبة والفناء والوجد والاحتراق من "خلال شرب الخمر في حلقات السماع، وسموها: مدامة حيدر وتناولوا المخدرات كالحشيشة"(١٥)، ويقول المقريزي: ((وكثر قدوم الصوفيين إلى مصر، وانتشر شرب الحشيش بينهم حتى سميت: (حشيشة الفقراء) نسبة إلى فقراء الصوفية))(١٦).

وطريقة الصوفية في تعذيب النفس واحتقارها دفعتهم إلى مزيد من التعمق والتشدد والتفتيش الجواني بصورة تتسم بكثير من الغلو والمغالاة، أوصلتهم إلى الابتلاء بالوساوس والخطرات المزعجة والمرفوضة التي اقتحمت خلواتهم، وسيطرت عليهم مهما أرادوا إبعادها، وأصابتهم بنوبات من القلق والشك والاضطراب النفسي والتهيؤات والتوهمات، فيرى بعضهم أشياء يعتقدها إلهامات روحانية أو مخاطبات إلهية، في حين أنها وساوس وتوهمات لتنتهي في النهاية هذه الحالة بالشخص إلى الجنون المؤقت (الفصام) والاضطرابات العصابية، والتي يطلقون عليها: حالة الجذب والفناء.

والصوفية يسمون الليالي التي تسبق حالة الجذب هذه ويصاب فيها الإنسان بالاكتئاب والإحباط والوساس والهوس: (الليالي المظلمة)؛ لما يعاني فيها من اضطرابات وآلام.

يقول الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح: ((التجربة الصوفية تسبقها في الغالب من الأحيان وتمهد لها حالة نفسية تتمظهر في الشعور بغياب الطمأنينة، وعدم الراحة، والقلق النفسي، والاضطراب الفكري، اصطلح عليه صوفية الأديان بالليالي المظلمة، ويعتبرون هذه الحالات بوابة التوبة وداعية الإنابة، والشروع في خوض التجربة الصوفية ومعاناة الطريق الصوفي، آملين تجاوز تلك الحالات والوصول إلى الطمأنينة الجوانية، والراحة النفسية، والتغلب على حالات الشك باستعادة اليقين (١٧).

والحلاج إمامهم المتقدم الذي قتل بالزندقة بعد أن ثبت ذلك عنه.. ذهب إلى الهند، ورأى سحرة الهند يقف الواحد منهم على رأسه الأيام الطويلة بدون أكل أو شرب ولا نوم، فتعلم هذه الرياضة منهم، فإذا وقف على رأسه هذه الفترة يدخل في الفترة التي يسمونها: (المالوخوليا)، وصور وخيالات من الجوع ومن هذه الانتكاسة ومن الشياطين، ويخيل له بأشياء ومخاطبات وكلام، فيقول: الله خاطبني، أو الرب كلمني أو كذا، ثم يترقى إلى أن يقول: أنا الله، ما في الجبة إلا الله، أو سبحانك سبحانك"(١٨).

لذلك لم تكن مغالاة الصوفية في التركيز على الجوانب النفسانية والإيغال في الاهتمام بالروحانيات سبيلا للسعادة التي كانوا يحلمون بها؛ بل كانت مزيداً من الشقاء والعذاب والاضطرابات.

- ثالثاً: الجانب السلوكي:

١- الانحراف الأخلاقي:

الانحراف الأخلاقي صبغ الشخصية الصوفية، وأصبح من السمات الأصيلة فيها.. نحن لا نتهم كل المتصوفة بهذه الصفة، لكننا نتحدث عن تصورات ومفاهيم وانفعالات وممارسات كان لها أثرها في ترسيخ صورة الشخصية الصوفية عبر تاريخ هذه الفرقة.

"المتصوف منحرف بطبعه، وانحرافاته السابقة - العقلية

والنفسية- ساهمت في انحرافه الأخلاقي، حيث يصبح من حقه إتيان جميع الفواحش والمنكرات التي يندى الجبين لذكرها، ورغم أن المتصوف يبرر ذلك بتخاريف هي من طبيعة الإيهامات السابقة؛ كالقول بأن الخمر مثلاً تنقلب في بطن الولي إلى لبن، أو أن الزانية لا تكون هي ذاتها، وإنما هي هيئتها فقط، أو أن المتصوف يخاف على نفسه من البقاء في حالته الروحية، ولذلك يعود إلى الواقع والدنيا بمزاولة الفواحش والمنكرات، وكل هذا هو محاولة فقط لتبرير الانحراف الحقيقي الذي يعانيه المتصوف، ولا يجد له علاجاً إلا بالانخراط فيه، وهذا هو المقام الحقيقي الذي يسعى المتصوف للوصول إليه"(١٩).

وهناك مجموعة من الأسباب دفعت المتصوفة للانحراف الأخلاقي منها:

- القول بوحدة الوجود:

نشأت نظرية (وحدة الوجود) عند ابن عربي، حيث انتهى إلى القول بوحدة الوجود، فقال: ((أن الوجود الحقيقي هو الله سبحانه، ولكننا نرى هذه الكثرة والتعدد قائمة أمام أعيننا فلا يمكن إنكارها، ومن ثم فهذه الموجودات كلها ليست سوى الله ذاته – تعالى، الله عما يقول علواً كبيراً – وكلها مظهر من مظاهره وتجل من تجلياته، وليست آية من آياته كما مفهوم أهل السنة، فحقيقة الرب إذن أنه وجود مطلق لا اسم له ولا صفة، ولا يرى في الآخرة، وليس له كلام ولا علم ولا غير ذلك، ولكن يُرى في الكائنات، فكل كائن هو الله والله هو كل كائن، فاتحد بذلك الوجود مع الخالق المعبود"(٢٠)، وكان من آثار هذه المعتقد قول ابن الفارض: " إن الله تجلى لقيس بصورة ليلى، وتجلى لكُثَيِّر بصورة عزَّة، وتجلى لجميل في صورة بُثَيْنَة، في قصيدته التائية المعروفة، فهو يعترف أن هذا من تجليات الحق".

((والشيخ الأكبر محيي الدين ابن عربي، الذي دخل بيت الشيخ مكين الدين وعاش عنده فترة، ثم أحب ابنته وقال فيها شعرًا يتغزلها ويصفها، قالوا له: أليس عيبًا أن تقول هذا الكلام في بنت الشيخ الذي استضافك وأعزك وأكرمك؟ فخرج بكتاب على الناس اسمه: (ترجمان الأشواق)، هذا الكتاب الذي ذهب فيه إلى أن كل ما قيل عن بنت الشيخ (مكين الدين) ليس غزلًا فيها، وإنما هو عن الذات الإلهية، وأنه إنما يقصد الذات الإلهية وهو يتغزل في بنت الشيخ (مكين الدين)، فهو إذا وصف القد، أو إذا وصف الخد، أو إذا وصف الوصال أو العناق، أو الصد أو البعد أو القرب، أو ما شاكل ذلك؛ فإنما كل ذلك منسحب على الذات الإلهية!"(٢١).

ويسوغ الصوفية غرامهم بالمرأة "وهم يقولون: لا ندري لعلها ربنا!، يشير صاحب الفتوحات المكية في هذا الصدد إلى أن حب المرأة ميراث نبوي وعشق إلهي، إذ إن: "شهود الحق في النساء أعظم الشهود وأكمله، وأعظم الوصلة النكاح".

إبطالهم للشريعة:

ومن أسباب انحرافهم كذلك: إبطالهم للشرائع، واعتقادهم أن هذه الأحكام لعوام المسلمين؛ نظراً لضيق عقولهم وقلوبهم عن استيعاب المعاني العلوية دون الالتزام برسوم وأشكال معينة، "فلما أبطلوا علم الشريعة وأنكروا أحكامها أباحوا المحظورات، وخرجوا عن إلزام الواجبات؛ فأباحوا النظر إلى المردان، والخلوة بأجانب النسوان، والتلذذ بأسماع أصوات النساء والصبيان، وسماع المزامير والدفاف، والرقص والتصفيق في الشوارع والأسواق بقوة العزيمة، فتركوا الحشمة، وجعلوا ذلك عبادة يتدينون بها، ويجتمعون لها، ويؤثرونها على الصلوات، ويعتقدونها أفضل العبادات، ويحضرون لذلك المغاني من النساء والصبيان وغيرهم من أهل الأصوات الحسنة، للغناء بالشبابات والطار والنقر والأدفاف المجلجلة، وسائر الآلات المطربة، وأبيات الشعر الغزلية التي توصف فيها محاسن النسوان، ويذكر فيها ما تقدم من النساء التي كانت الشعراء تهواها وتشبب بها في أشعارها وتصف محاسنها، كليلي ولبنى وهند وسعاد وزينب وغيرهن".

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ((كثير من هؤلاء يخرجون عن ربقة العبودية مطلقاً؛ بل يزعمون سقوط بعض الواجبات عنهم، أو حل بعض المحرمات لهم، فمنهم من يزعم أنه سقطت عنه الصلوات الخمس لوصوله إلى المقصود، وربما قد يزعم سقوطها عنه إذا كان في حال مشاهدة وحضور، وقد يزعمون سقوط الجماعات عنهم استغناء عنها، بما فيه من التوجه والحضور، ومنهم من يزعم سقوط الحج عنه مع قدرته عليه؛ لأن الكعبة تطوف به، أو لغير هذا من الحالات الشيطانية، ومنهم من يفطر في رمضان لغير عذر شرعي زعماً منه استغناءه عن الصيام، ومنهم من يستحل الخمر زعماً منه أنها تحرم على العامة الذين إذا شربوها تخاصموا وتضاربوا دون الخاصة من العقلاء، ويزعمون أنها تحرم على العامة الذين ليس لهم أعمال صالحة، فأما أهل النفوس الزكية والأعمال الصالحة فتباح لهم دون العامة".

- عقيدة الإرجاء:

الصوفية من غلاة المرجئة الذين جعلوا الإيمان مجرد المعرفة، فعدوا إبليس من المؤمنين، وسووا بين فرعون وأبي بكر؛ لذلك نجد ابن عربي يدافع عن جميع الملل والمذاهب باعتبارهم مؤمنين.. يقول ابن عربي:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إذا لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلاً كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف
وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنى توجهت
ركائبه فالدين ديني وإيماني

يحكم ابن عربي بنجاة فرعون موسى، يقول معقباً على قوله تعالى: ((قُـرَّةُ عَـيْنٍ لِـي وَلَـكَ))[القصص:٩] "فبه قرت عينها بالكمال الذي حصل لها، وكان قرة عين لفرعون بالإيمان الذي أعطاه الله عند الغرق، فقبضه طاهراً مطهراً، ليس في شيء من الخبث، ويقول عن فرعون أيضاً: "فنجاه الله من عذاب الآخرة في نفسه، ونجى بدنه، فقد عمته النجاة حساً ومعنى"(٢٢).

(ويقص الجيلي إباء إبليس عن السجود لآدم، وقوله: (أنا خير منه)، فيقول الجيلي: "وهذا الجواب يدل على أن إبليس من أعلم الخلق بآداب الحضرة، وأعرفهم بالسؤال، وما يقتضيه من الجواب"، وتابع ذلك في كتابه (الإنسان الكامل)؛ لتراه في إعجابه الرائع بإبليس، وتقديسه له، وحكمه بأنه في الفردوس يوم القيامة، وعقيدة الإرجاء عند المتصوفة ولدت لديهم استهانة بالمحرمات واجتراء، فطالما أنه سيظل مؤمناً فلا غضاضة من أن يأتي الفواحش والمحرمات.

- قولهم بالجبر:

فالصوفية جبرية في باب القدر، حيث يقولون أن كل ما يجري في هذا الكون من أفعال أن الله تَعَالَى هو الفاعل لها، وليس لغير الله مشيئة ولا إرادة، وقالوا أيضاً: إن الإنسَان إذا وصل إلَى مرحلة التوحيد الحقيقي بأن لا يرى في هذا الكون شيئاً سوى الله، أو يقول: لا موجود إلا الله، فلا يرى إلا الله، وأن حركات النَّاس وسكناتهم كلها من فعل الله؛ فلا تقل: هذه طاعة، ولا تقل: هذه معصية، ولا هذا كفر، فكله من الله، وهذا غاية التوحيد،

يقول الدكتور يوسف القرضاوي:" هذه الاتجاهات قتلت نفسيات كثير من أبناء المسلمين، فسرت فيهم روح جبرية سلبية، كاعتقادهم القائل: أقام العباد فيما أراد.. دع الملك للمالك، واترك الخلق للخالق.. يعني بذلك أن يكون موقفه سلبيًا أمام الانحراف والفساد، وأمام الظلم والاستبداد، وهذا أيضًا من الغلو والانحرافات التي ظهرت عند الصوفية" (٢٣).

ومن أمثلة الجبر عندهم: قول ابن عربي: ((ومَن اتسع في علم التوحيد ولم يلزم الأدب الشرعي فلم يغضب لله ولا لنفسه... فإن التوحيد يمنعه من الغضب؛ لأنه في نظره ما ثمَّ من يغضب عليه لأحدية العين عنده في جميع الأفعال المنسوبة إلى العالم، إذ لو كان عنده مغضوبٌ عليه لم يكن توحيدٌ، فإنَّ موجب الغضب إنما هو الفعل، ولا فاعل إلا الله".

وهذا السلوك الجبري لم يجعل المتصوفة يفرقون بين طاعة ومعصية مادام أن كلاً من عند الله على زعمهم، الأمر الذي هون من شأن المعصية في نفوسهم وجرأهم عليها.

- طلب ذم الناس:

سعى بعض المتصوفة جاهدين لطلب ذم الناس لهم؛ ظناً منهم أن ذلك أدعى للإخلاص وأحفظ له وأسر للعبادة، وكان سبيلهم لطلب الذم هو إتيان المحرمات، ومن أشهر طرق الصوفية التي تبنت هذا الأمر: طريق (الملامتية)،ويرى هؤلاء أن العمل بشيء من العبادات في الظواهر شركاً، فلاموا أنفسهم على جميع ما أظهروه من أنواع القرب والعبادات، وأظهروا للخلق قبائح ما هم فيه، وكتموا عنهم محاسنهم، فلامهم الخلق على ظواهرهم.

فهؤلاء القوم أظهروا القبائح بزعمهم ازدراء لأنفسهم، وحتى لا يتعلق بهم الناس، وحتى لا يظنوا فيهم أنهم أولياء، وهم يريدون أن يكونوا أولياء في الباطن فقط ولا أحد يعلم بهم، ولكي ينزهوا أنفسهم عن الرياء وعن كلام الناس أظهروا القبائح، وأظهروا المعايب والشنائع، حتى إن منهم من كان يأتي الفاحشة في الدواب علانية أمام الناس، ومنهم من سرق لباس أحد الناس ولبسه بحيث يرى وخرج إلى الشارع، وكان الناس يعتقدون فيه الولاية، فلما رأوه أدركوه وضربوه وأخذوا الملابس، فقيل له في ذلك فقال لهم: حتى أسقط من أعينهم وأبقى في عين الله الحق))، كل هذا كما يقولون: في سبيل تزكية النفس وتطهيرها، وهذه لم تكن طريقة الشرع؛ لا في القصد إلى إظهار الطاعات ابتداء، ولا في طلب ذم الناس، وهو أمر مخالف للشرع وللفطر السوية، خاصة إذا اقترن بمحرم، فولاية الله تطلب بالانصراف كلية عن ملاحظة الخلق في النيات والأعمال، وإن كان الإنسان متعبداً فيما يتعبد به من أوامر الشرع برماعاة أحوال الناس وعدم الوقوف في مواقف التهم، فضلاً أن يقارف كبيرة تسقطه من عين الله قب لأن يسقط من عين نفسه وتفتح له باباً من أبواب الشر، ويتبع فيه خطوات الشيطان الذي يأمره بالمنكر.

- الجذبة:

حالة الجذب باعتبارها في حس العامة خروج الإنسان عن بشريته وطبيعته إلى حالة من الوجد والاحتراق لا يمكنه السيطرة عليها - وفرت للمتصوفة هامشاً من الحرية كبيراً كان بمثابة الغطاء الذي يبرر به المتصوف انحرافاته، حيث ينعتق المريد من القيود الاجتماعية والشرعية، ويتنصل من الالتزامات والمواضعات الأخلاقية؛ بل ويضفي العامة هالة من التمجيد والإعلاء لهذا الانحراف.

يتحدث الشعراني في طبقاته عن أحد الأقطاب فيقول: ((الشيخ إبراهيم العريان، كان رضي الله عنه إذا دخل بلداً سلّم على أهلها كباراً وصغاراً بأسمائهم، حتى كأنه تربى بينهم، وكان رضي الله عنه يطلع المنبر ويخطب عرياناً، فيحصل للناس بسط عظيم)) (الطبقات الجزء الثاني ص: ١٤٢).

٢- السلوك السلبي الاعتمادي:

والشخص الذي يتسم بهذا السلوك يعتمد على الآخرين في حياته، وهو دائماً سلبي في التعاطي مع الأزمات التي قد تواجهه،

منعزل عن الناس، والمتصوفة بحجة حفظ الباطن عاشوا عالة على الناس، وزعموا أنهم لو اشتغلوا بكسب المعاش انقطعوا عن حفظ الباطن، وتشوش عليه بالالتفات عن أنواع الواردات الباطنية إلى مراعاة الجسد الفاني.

نقل عن أبي جعفر الحداد - وكان أستاذ الجنيد- أنه كان يخرج بين العشائين، ويسأل من باب أو بابين.

"وذكر عن النوري أنه كان يمدّ يده ويسأل الناس.

وذكر النفزي الرندي عن أبي سعيد الخراز أنه كان يمدّ يده ويقول: (ثمّ شيء لله).

وابن عجيبة الحسني ذكر عن التجيبي ابن ليون أنه بين أصل السؤال ومسألة الزنبيل، فيقول: (كيفيته: أن يتوضأ الرجل ويصلي ركعتين، ويأخذ الزنبيل (يعني وعاء) بيده اليمنى، ويخرج إلى السوق ومعه رجل آخر يذكر الله ويذكر الناس، والناس يعطونه في ذلك الزنبيل حتى يجمع ما تيسر من الطعام، ويعبّه بين الفقراء فيأكلون طعاماً حلالاً بلا تكلف ولا كلفة، هذا ما تيسر لنا في حكم السؤال"(٢٤)

وفي هذا السبيل بنى المتصوفة التكايا والزوايا، وهي دكاكين للبطالة والبطل، مستريحين من كدّ المعاش، متشاغلين بالأكل والشرب والغناء والرقص، يطلبون الدنيا من كل ظالم، يقول ابن عقيل: ((اتخذوا مناخ البطالة - وهي الأربطة- فانقطعوا إليها عن الجماعات في المساجد، فلا هي مساجد ولا بيوت ولا خانات، وصمدوا فيها للبطالة عن أعمال المعاش"(٢٥).

وساهم قولهم بالجبر في تعميق الاعتمادية والسلبية في سلوكياتهم؛ إذ ما الداعي للكد والتعب وكل ما يجري هو من فعل الله وليس لغيره مشيئة ولا إرادة، فالمتصوفة يؤمنون بالجبرية المطلقة – السلبية المطلقة – والتوكل عندهم هو تواكل، يقعد ليذهب في البادية بدون أي زاد يقول: إنه متوكل على الله.

وهذا السلوك السلبي الاعتمادي يفسر مواقفهم تجاه الهجمات المستمرة التي يتعرض لها المسلمون في القديم والحديث.

فمن ذلك: ما ذكره مصطفى كامل في كتابه: (المسألة الشرقية) قائلاً: "ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسة للقيروان، أن رجلاً فرنساوياً دخل الإسلام، وسمى نفسه: سيد أحمد الهادي، واجتهد في تحصيل الشريعة، حتى وصل إلى درجة عالية، وعين إماماً لمسجد كبير في القيروان، فلما اقترب الجنود الفرنساوية من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاءوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه، فدخل سيد أحمد الضريح، ثم خرج مهولاً لهم بما سينالهم من المصائب، وقال لهم: بأن الشيخ ينصحكم بالتسليم؛ لأن وقوع البلاد صار بحتاً، فاتبع القوم البسطاء قوله، ولم يدافعوا عن القيروان أقل دفاع؛ بل دخلها الفرنساويون آمنين"(٢٦).

٣- الغلو والتطرف:

اتسمت الشخصية الصوفية بالغلو والتطرف في كثير من تصوراتها وآرائها وممارساتها، واتخذ هذا الغلو مظاهر عدة سواء على مستوى الأفكار أو السلوك.

فمن صور الغلو عند المتصوفة في العقائد: قولهم بوحدة الوجود، حتى وصل ببعضهم الأمر إلى الاعتقاد أن الشيطان أفضل من كل الملائكة، وفرعون أفضل من موسى؛ لأن فرعون أدرك الحقيقة الإلهية، وموسى لم يدركها، والإنسان هو الله، وكل عبادة من عبادات البشر هي عبادة صحيحة، حتى العبادات الوثنية؛ لأن الله هو الوجود نفسه، فهو الكلب - حاشا لله- وهو الخنزير، وهو كل هذه المخلوقات، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!!!

ومن صور الغلو: تعطيلهم للشرائع، وإسقاط التكليف، وإسرافهم في التفسير الباطني للقرآن والسنة.

ومن صور التطرف: سعيهم لاجتناب المباحات، وقولهم: أن المباح على العارف هو من المحرمات، إلى اجتناب الموبقات بل والشرك.

ومن صور التطرف: التحقير من شأن العقل والجسد، والتطرف في التركيز على الاهتمام بالجوانب النفسية.

ومن صور المغالاة: الإمعان في تعذيب النفس وحبسها عن الطعام والشراب لأيام وشهور، وقد مر بك طرف منها، يقابل هذا الإسراف في الطعام والشراب، "فقد كانت توصف أماكن التصوف بالترف والسعة نتيجة ما رصد لها من أوقاف، وأوضح ابن جبير مدى رفاهية العيش التي حظي بها الصوفية داخل الخوانق والربط في العهد الأيوبي"(٢٧).

ومن صور التطرف: ذم الزواج ومفارقة الزوجات، يقول السهروردي: التزوج انحطاط من العزيمة إلى الرخص، ورجوع من الترمح إلى النقص، ونقل الشعراني عن رباح بن عمرو القيسي – وهو من الصوفية الأوائل- أنه قال: لا يبلغ الرجل إلى منازل الصديقين حتى يترك زوجته كأنها أرملة، وأولاده كأنهم أيتام، ويأوي إلى منازل الكلاب، وذكر السراج الطوسي أيضاً قصة صوفي تزوج من امرأة فبقيت عنده ثلاثين سنة وهي بكر، وذكر العطار عن عبد الله بن خفيف الصوفي المشهور أنه تزوج أربعمائة امرأة ولكنه لم يجامع واحدة منهن"(٢٨).

يقابل هذا التطرف في العزوف عن المرأة تطرف آخر من بوهيمية شهوانية وإباحية منقطعة النظير، يتحدث الشعراني عن أحد المتصوفة فيقول: ((الشيخ علي وحيش كان رضي الله عنه من أعيان المجاذيب أرباب الأحوال، ثم يذكر أنه كان يأتي البهائم))(٢٩).

ومن صور التطرف: الغلو في الصالحين والشيوخ، حتى إن "الشيخ نجم الدين يستحي أن يصلي باتجاه القبلة وخلفه الشيخ أبو العباس المرسي (القطب) فأدار وجهه باتجاه القطب الشيخ أبو العباس (٣٠).

- رابعاً: الجانب الجسماني:

المتصوفة يرون أن من أهم الأشياء على السائرين في الطريق أن يتجاوزوها نحو السمو الروحي هو: الجسد الذي يشكل - كما يرون- عبئاً على الروح، فيشدها إلى التسافل نحو تلبية حاجاته وإشباعها، ومن ثم يوصي السائرون في طريق ما يسمى بالمجاهدات والرياضات الروحية بالتجرد من التعلقات، وخصوصاً تعلقات الجسد وحاجاته، ففناء الجسد عند الصوفية هو غاية الغايات (٣١).

ويعتقد الصوفية أن الإنسان " لا يكون حكيماً حتى يتخلص من العلائق البدنية الجسمانية، ويتغلب على العوائق الردية الظلمانية، ويصل الحال بالسائر في هذا الطريق أن يقطع كل صلته بالناس ويخلع من نفسه سلطان البدن، لذلك تخرج النفس من مبدئها الروحي، كما يقول السهروردي في هياكل النور"(٣٢).

والصوفية في سبيل تحقيق هذه الغاية قاموا بتعذيب أجسامهم، حتى نحلت وأصابها الوهن، وقد مر بنا أن أحد الصوفية القدامى الهويجري عن أبي عثمان المغربي:" أنه في بداية حاله اعتزل عشرين سنة في البوادي بحيث لم يكن يسمع آدمياً، حتى ذابت بنيته من المشقة، وصارت عيناه كسّم الخياط، وتحول عن صورة الآدميين.

كما لم يهتم الصوفية بنظافة أجسامهم، فيحكي الشعراني في ترجمة (شمس الدين محمد الحنفي): (ومنهم سيدنا ومولانا شمس الدين الحنفي رضي الله تعالى عنه ورحمه.. إلى أن قال: ولما دنت وفاته بأيام كان لا يغفل عن البكاء ليلاً ولا نهاراً، وغلب عليه الذلة والمسكنة والخضوع، حتى سأل الله تعالى قبل موته أن يبتليه بالقمل والنوم مع الكلاب، والموت على قارعة الطريق، وحصل له ذلك قبل موته، فتزايد عليه القمل حتى صار يمشي على فراشه، ودخل له كلب فنام معه على الفراش ليلتين وشيئاً، ومات على طرف حوشه، والناس يمرون عليه في الشوارع"(٣٣).

وقال أيضاً في ترجمة بركات الخياط: ((وكان دكانه منتناً قذراً؛ لأن كل كلب وجده ميتاً أو قطاً أو خروفاً يأتي به فيضعه داخل الدكان، وكان لا يستطيع أحد أن يجلس عنده "(٣٤).

كما كان المتصوفة لا يرتدون إلا الصوف الخشن والأسمال البالية؛ بل إن بعضهم كان لا يستر جسده نهائياً ويعدها من كراماته.

وينقل عن إبراهيم المتولي أنه قال: ((كل فقير لا يحصل له جوع ولا عري فهو من أبناء الدنيا)).

وينقلون عن الرفاعي أحمد بن أحمد بن أبي الحسين صاحب الطريقة الرفاعية أنه كان يقول: أكره للفقراء

دخول الحمام، وأحب لجميع أصحابي الجوع والعري والفقر والذل والمسكنة، وأفرح لهم إذا نزل بهم ذلك)).

❖❖ وأخيراً:

يتضح من خلال هذا العرض السريع للشخصية الصوفية خلال تاريخ هذه الفرقة البون الشاسع بينها وبين الشخصية الإسلامية.

فالبناء الإسلامي للشخصية حرص على الربط بين مكونات الشخصية جميعاً: العقلية، والنفسية، والسلوكية، والجسمية؛ ليجعل منها كياناً واحداً مترابطاً يشملها جميعاً دون إفراط ولا تفريط، ودون أن يطغى أي جانب منها على الآخر، فهو لم يرفع الإنسان إلى درجة الألوهية، كما لم ينزل به إلى دركات البهيمية، كما أنه ليس في الإسلام ذلك النوع من الرهبانية أو الحرمان أو التعذيب الذي يدعي أصحابه أنه يصل بهم إلى المعارف العليا، وليس فيه كذلك هذه النزعة المادية التي تجعل منتهى غاياته هي إشباع شهواته، ((فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا))[الروم:٣٠].

الهـــوامش

(١) الفوائد (ص: ٢٩).
(٢) الثقافة والشخصيّة، عيسى الشماس.
(٣) هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل.
(٤) طبيعة الشخصية الطرقية، عمر مناصريه، موقع الشهاب.
(٥) الأنوار القدسية، لعبد الوهاب الشعراني.
(٦) الإسلام والطاقات المعطلة، محمد الغزالي.
(٧) البداية والنهاية (١١/ ١٥٤) لأبي الفداء ابن كثير.
(٨) بد العارف، لعبد الحق بن إبراهيم بن محمد الرقوطي نقلاً عن خصائص المصطفى صلى الله عليه وسلم بين الغلو والجفاء.. رسالة ماجستير من إعداد الصادق بن محمد بن إبراهيم.
(٩) نقلاً عن خصائص المصطفى صلى الله عليه وسلم بين الغلو والجفاء، رسالة ماجستير من إعداد الصادق بن محمد بن إبراهيم.
(١٠) التصوف المنشأ والمصادر، إحسان إلهي ظهير.
(١١) التصوف المنشأ والمصادر، مصدر سابق.
(١٢) فضائح الصوفية، عبد الرحمن عبد الخالق.
(١٣) شرح الطحاوية، سفر الحوالي، أشرطة.
(١٤) في التصوف المقارن: ملاحظات منهجية، عرفان عبد الحميد فتاح، مجلة المعرفة.
(١٥) في التصوف المقارن، مصدر سابق.
(١٦) الخطط، لتقي الدين أحمد بن علي المقريزي، (٢ / ١٢٦).
(١٧) في التصوف المقارن، مصدر سابق.
(١٨) رسالة من الدكتور سفر الحوالي لأحد المسلمين في أمريكا.
(١٩) طبيعة الشخصية الطرقية، مصدر سابق.
(٢٠) الصوفية نشأتها وتطورها، لمحمد العبدة، وطارق عبد الحليم، دار الأرقم.
(٢١) رابعة العدوية.. الشخصية والأسطورة، لمحمد جميل غازي.
(٢٢) هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل (ص: ٩٦).
(٢٣) موقع إسلام أون لاين، الدكتور يوسف القرضاوي.
(٢٤) التصوف المنشأ والمصادر، إحسان إلهي ظهير.
(٢٥) نقلاً عن فضائح الصوفية، عبد الرحمن عبد الخالق.
(٢٦) نقلا عن هذه هي الصوفية، عبد الرحمن الوكيل.
(٢٧) طبقة العامة في مصر في العصر الأيوبي، شلبي إبراهيم الجعيدي، كثير من مشايخ التصوف الآن يعيشون في قصور فاخرة.
(٢٨) التصوف المنشأ والمصادر، إحسان إلهي ظهير.
(٢٩) الطبقات للشعراني (٢ / ١٤٩).
(٣٠) لطائف المنن (ص: ٧٤)، نقلاً عن الصوفية نشأتها وتطورها، محمد العبدة، طارق عبد الحليم، سابق.
(٣١) ينظر: مقالة الرحلة الصوفية وثنائية الجسد والروح، شمخي جبر، موقع الطريقة العلية القادرية الكسنزانية.
(٣٢) ينظر: مقالة الرحلة الصوفية السابق.
(٣٣) طبقات الشعراني (٢/ ٨٨).
(٣٤) طبقات الشعراني (٢/١٤٤).

الفضائية الصوفية.. لماذا؟ وإلى أين؟

أسامة الهتيمي - محمد عبد العزيز الهواري

في أثناء انعقاد مؤتمر عن دور الصوفية أمام تحديات العصر أعلن محمد علاء أبو العزايم - شيخ الطريقة العزمية- إصدار قناة للصوفية في يناير القادم ٢٠٠٩م.

وذكر أن المتخصصين الإعلاميين من أبناء الطريقة العزمية قدموا دراسة لوضع خطة للفقرات التي ستعرض على القناة، وهي مقسمة بين: مسلسلات، وأفلام دينية ووثائقية، وبرامج يتحدث فيها علماء التصوف، ومحاضرات للتربية الصوفية للشباب، ودروس لحماية اللغة العربية، وتغطية احتفالات الموالد الصوفية والمؤتمرات.

وعن إعلانه من طرف واحد بث قناة الصوفية، قال أبوالعزايم: "اقترحت الموضوع على المجلس منذ عامين، الذي وافق بالإجماع، لكنهم لم يتخذوا أي خطوة في سبيل ذلك، وفي اجتماع المجلس غدًا سنعرف إن كان سيشارك جديا أم لا، وبناءً عليه سيتحدد اسم القناة بين (مشيخة عموم الطرق الصوفية) التابعة للمجلس أو قناة (الصفوة) للمشيخة العزمية)).

وهنا ثارت العديد من التساؤلات حول دور هذه القناة، ومصدر تمويلها الذي يصل لخمسة ملايين دولار، خاصة مع الدور المشبوه المعروف عن الطريقة العزمية وعلاقتها بأمريكا وإيران، وتشيع الكثير من أفرادها، ودعوتها الشيعية الخفية، خاصة أن هذا الإعلان جاء بعد عودة أبو العزايم من مؤتمر للتصوف بأمريكا، القائم عليه مجموعة من شيعة إيران.

حاولنا أن نستطلع آراء بعض أهل العلم حول القناة ودورها القادم، وتوقعات فشلها أو نجاحها، وكيفية مواجهة ما ستنشره من بدع، فكانت الإجابات كالتالي:

يرى الدكتور علي محمد مقبول - الأستاذ بكلية الآداب قسم الدراسات الإسلامية بجامعة صنعاء اليمنية- أن القناة الفضائية التي يعتزم الصوفية في مصر وعلى رأسهم الطريقة (العزمية) بثها عما قريب لن يكون لها حضورها الإعلامي الذي تتوقعه هذه الطرق الصوفية؛ لأن التيار الصوفي - في اعتقادي- لن يكون له زخم إعلامي أو شعبي في العالم في الوقت الراهن، فالتصوف ما زال يشم اليد والرجل!! ونحن الآن في عالم الإنترنت والفضائيات والتطور العلمي والتقني الهائل فمن لم يسرع به عمله لا يسرع به حسبه.

وقال الدكتور مقبول: بالفعل كان للتيار الصوفي تأثير كبير على الأمة العربية والإسلامية خلال عقود طويلة مضت، كما كان الاستعمار الأجنبي يستفيد منه، ويحسن استخدام هذا التيار في خدمة وتحقيق أهدافه، ففي الوقت الذي كانت تضرب فيه مصر كانت الجماعات المتصوفة تقرأ صحيح البخاري في المسجد الأزهر! فهل يعقل أن يتفاعل الناس مع هذا التيار في ظل هذه الحالة التاريخية التي تعيشها الأمة؟! بالتأكيد هذا ضد المنطق، ولهذا فأنا أتوقع أن التيار الصوفي ومع هذا الانفجار المعلوماتي لن يكون له دور حقيقي وفاعل ربما ما زال يتبعه البعض؛ لكن لن يكون حجم التابعين كبيراً، وسيقتصر على العاطلين وأمثالهم الذين يرتاحون بأن تقول لهم: من صلى على النبي سيكون له كذا وكذا دون أن يستحثه على العمل والاجتهاد.

وأضاف الدكتور مقبول: أن التيار الصوفي في سلوكه هذا يخالف - للأسف الشديد- ما جاء به الإسلام الحقيقي؛ إذ العمل أن تبذل ما في وسعك من أجل نفسك والآخرين؛ لذلك قال عبد الله بن عباس رضي الله عنه: ((لئن أخرج في حاجة أخي خير من أعتكف شهراً))، فيما قطع رجل شجرة كانت تؤذي المسلمين فأدخله الله الجنة.. فهل يكون العمل بهز الوسط والتمايل يمنة ويسرة، فضلاً عن تلك الأفعال التي يقوم بها من يدعون التصوف؟!

إننا لا نختلف - بالطبع- مع الاهتمام بالتربية الروحية والنفسية، فهذا يجب أن يكون في إطار التكامل في الإسلام لبناء الشخصية المسلمة بمختلف جوانبها، لكن أن يأتي مدعو التصوف بالبدع والخرافات في الوقت الذي تتقدم فيه الأمم.. سيكون الأمر بلا شك جللاً وخطيراً على مستقبل هذه الأمة!! في حين نجد -مثلاً- أن الجيش الاحتياطي في الكيان الصهيوني يساوي نصف السكان، فهل سنحرر القدس بالطبال والرقص

وكلمات (هو وهي) وغير ذلك من الكلمات المبهمة، أم أن علينا أن نستنهض الأمة بالعمل والجد؟! فأي الأمرين ستقدم هذه الفضائية الجديدة؟ أعتقد أن عليهم أن يفكروا جيداً فيما سيقدمونه، وإلا سيقعون في خطأ كبير لا يمكن أن يغتفر.

ولفت الدكتور مقبول إلى أن العديد من البلاد العربية والإسلامية تشهد وجود هذا التيار بالفعل؛ إذ يوجد في اليمن – مثلاً- الكثير من أتباع هذا المنهج وبالذات في محافظات الجنوب اليمني، حتى إن بعضهم برز إعلامياً بشكل كبير، وهم يتحدثون دائماً عن حب الرسول صلى الله عليه وسلم، والبكاء خشية من الله، والزهد.. وغيرها من الأمور التي لا خلاف فيها بين المسلمين.. لكن السؤال الذي يطرح نفسه: وماذا بعد؟.. فهل نتحدث عن حب النبي الكريم والبكاء ولا نعمل ولا نسعى، ولا نحاول أن نغير من أنفسنا، ولا نحاول أن نلحق بركب العلم الذي فاتنا؟! وهل سيكون الحديث عن الحب والبكاء هو أخذ بأسباب الرزق التي حث عليها الإسلام؟! بالتأكيد هذا أمر مرفوض شرعاً ومنطقاً.. وقديماً - مثلاً- كان يسمى اليمنيون بالمتوكلين، إلى أن رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجموعة من هؤلاء اليمنيين يحجون بلا زاد فقال لهم عمر: ((من أنتم؟ فقالوا له: نحن المتوكلون: فقال لهم: بل أنتم المتواكلون)).. فالمتوكل هو من يضع الحبة في الأرض ويتوكل على الله، وفي الحديث الشريف: ((اعقلها وتوكل)).. فهل مثل هذا التيار يمكن أن يتفاعل معه الناس في زمننا هذا؟ وهل يمكن أن تنجح فضائية تتحدث باسم تيار يحمل مثل هذه الأفكار؟ أعتقد أن الواقع والوعي بحقيقة الدين كفيلان بأن يصرفا نظر الناس عن مثل هذه الوسائل.

أما الدكتور جعفر شيخ إدريس - الكاتب والمفكر السوداني المعروف- فيتساءل: ماذا سيقول هؤلاء في تلك الفضائية التي يعتزمون بثها عن الصوفية الآن؟

فالصوفية صارت كلمة عامة جداً لا معنى لها، فأي شخص يمكن أن يقول عن نفسه إنه صوفي، مع أن الصوفية بشكلها العام والشائع بين الناس الآن هي مخالفة صريحة للسنة النبوية، وبالتالي فإن مثل هذه الفضائية أمر غير مبشر على الإطلاق.

وقال الدكتور إدريس: إنني أخشى أن يكون وراء هذه القناة الفضائية الجديدة بعض الجهات الخفية، فعندما كنا في أمريكا كنا نكاد نرى تشجيعاً من الحكومة الأمريكية للحركات الصوفية لكي تقف في وجه الحركات السنية الصحيحة، وأخشى أن يكون هذا الأمر من هذا النوع؛ بهدف مواجهة حالة الانتباه لأهمية الإعلام بمختلف وسائله التي سرت بين فصائل الصحوة الإسلامية في الآونة الأخيرة بالكثير من دولنا العربية والإسلامية.

وقال الدكتور إدريس - وهو يبتسم ابتسامة ساخرة- : ومع ذلك إنني أتوقع أن تحقق هذه القناة الفضائية الخاصة بالصوفية النجاح بعض الشيء؛ وذلك لأن هناك الكثيرين في العالم الإسلامي يقولون أو يدعون أنهم من المتصوفة، وهذا شيء مؤسف للغاية.

من جانبه شدد الدكتور محمد العبدة - المفكر الإسلامي السوري المعروف- ورئيس تحرير مجلة البيان السابق- على أننا لا نستطيع الآن أن نتحدث عن نجاح أو عدم نجاح هذه القناة الفضائية الخاصة بالصوفية، غير أنه يمكننا أن نقول: إنه على هؤلاء الصوفيين - إن كانوا فعلاً صادقين في أنهم يمثلون شيئاً من السلوك والأخلاق الإسلامية- أن يرجعوا إلى منهج أوائل الصوفية المشهورين بالزهد والسلوك الحسن والعبادة الصادقة الصحيحة، وليس إلى مصطلحات وألفاظ وأمور فيها الكثير من الاشتباه، وفيها باطل وحق، فإذا كانوا يريدون الخير حقيقة فليرجعوا إلى أمثال إبراهيم بن أدهم، والجنيد، وأمثالهم من الملتزمين بالحديث والسنة والمذاهب الأربعة، وعليه فإنهم مطالبون أيضاً بالالتزام بهذا النهج في هذه الفضائية بدلاً من أن يشاركوا في إحداث البلبلة بين الناس.

وقال الدكتور العبدة: إنه للأسف الشديد لم يعد المتصوفة في الوقت الحالي كما كان أعلام التصوف الحقيقي سابقاً، لا على مستوى الأخلاق والسلوك، ولا على مستوى العبادات والاستقامة، ولا حتى فيما يخص الابتعاد عن الجشع والتكسب من الجميع، وبالتالي لم يعودوا يمثلون هذا الخط في حقيقته وجوهره، فلا ننتظر أو نتوقع منهم أن يشاركوا أو يسهموا بهذه الفضائية وبرامجها في الإعلاء من القيم الروحية للمسلمين، أو أن يستحثوهم على أداء العبادات كما جاء بها الإسلام.

وأشار الدكتور العبدة إلى أن صوفية اليوم أصبحوا يتبعون طريقة معينة من الطرق المتعددة، والتي ترفع كل منها شعاراً معيناً، وتلتزم بما يسمى بـ (أوراد الذكر) التي كثيراً ما يخلطون بها أشياء وعبارات فلسفية ولا ينتبهون لها، وقد تكون هذه العبارات شركية ومخالفة تماماً لمنهج الإسلام.. فهل ستكون هذه الفضائية منبراً لمثل هذه الأشياء؟! أم أنها ستراعي حالة ووضع المسلمين، وما يجب أن تكون عليه وسائل الإعلام الإسلامية في وقت تعاني فيه أمتنا من مشكلات كبيرة تحتاج

إلى تضافر الجهود من أجل التخفيف من حدتها؟!

وقال الدكتور العبدة: إننا نسمع كثيراً من بعض قيادات الطرق الصوفية أنهم من أهل السنة، وأنهم ملتزمون بالكتاب والسنة، فأهلاً وسهلاً بهم، والجميع بكل تأكيد يرحب بهم؛ بشرط أن يصدق فعلهم قولهم، لفتاً إلى أن هذه الفضائية ربما تكشف الكثير وتؤكد الكثير أيضاً.

من جهة أخرى بيّن الدكتور عبد العزيز آل عبد اللطيف – الأستاذ المشارك في قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض– أن لا غرابة أن ينشط أهل الأهواء - كالصوفية مثلاً – في سبيل التشبث بأذواقهم ومواجيدهم، فقد قال تعالى: ((وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ))[البقرة:٩٣]، لاسيما وأن (صحو) الصوفية يؤزّه الغرب عموماً وأمريكا خصوصاً، والباعث لذلك هو المكايدة للمذهب السلفي السني، وتقديم (التصوف) بديلاً مريحاً و ذلولاً للغرب وأذنابه!

هذا (الصحو) سيعقبه (المحو) والانطماس بعون الله تعالى؛ إذ إن من أسباب ظهور الحق: ظهور المعارضين والشانئين له، ولو أن أهل السنة والجماعة بذلوا بعض جهودهم في مدافعة هذا الوباء ومعالجته، ونشر السنة وتبليغ دين الله؛ لما كان لهؤلاء (الغثاء) أن يظهروا، ولكن نشكو إلى الله عجز الثقة وجلد الفاجر.

والمدافعة لهذه القناة تكون بنظيرها، فيسعى إلى إنشاء قنوات تهدف إلى تقرير منهج أهل السنة في التلقي والاستدلال في جميع شؤون الدين؛ من اعتقاد، وفروع، وسلوك وآداب.. وكشف عوار المناهج البدعية من تصوف وتشيع وكلام.. واتخاذ مراكز بحثية متخصصة من أجل إعداد الخطط والبرامج في رصد التصوف ومدافعته وكشف تهافته، ودعوة القوم ومناظرتهم ومحاورتهم؛ بل ومباهلتهم إذا احتيج إلى ذلك.. فهل نحن فاعلون؟

أما الباحث الإسلامي المغربي الأستاذ مصطفى البرجاوي فيقول: أنا لا أعرف شيئاً عن هذه القناة، ولكن الصوفية لا تخلو من أمرين: إما أن تكون مخالفة للشريعة، أو موافقة لها وفي الشريعة ما يغني.

وأضاف البرجاوي: أنه في تقرير لمؤسسة (راند) الأمريكية صنف التقرير الصوفية في قائمة ما سماه: بالجماعات الإسلامية المعتدلة، فهي - كما نعلم- لا تتعرض للتضييقات كما هو الشأن مع بعض الحركات الإسلامية الأخرى؛ لأنها بعيدة كل البعد عن الاشتغال بالمجال السياسي، كما أنها بعيدة عن هموم الناس ومشاكلهم؛ لهذا فهي أقرب إلى الرهبانية التي حذر منها الله سبحانه وتعالى.

واستطرد الأستاذ البرجاوي: إنني بحثت في موضوع الصوفية منذ مدة فوجدت أنها من أصول بوذية: (النرفانة) و(الزراديشتية)، والفلسفات الوثنية الوضعية مختلطة مع بعض تعاليم الإسلام؛ لهذا فقد أسميتهم في بعض المقالات: بتيار إخوان الصفا الجدد.

وأوضح البرجاوي أن ما يهم في المسألة ليس مصطلح الصوفية في ذاته بقدر ما تهم المضامين والمعتقدات؛ إذ الصوفية المتأخرة حادت على الطريق، واشتغلت بالطقوس والشطحات والبدع التي حذر منها النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، في حين كانت دعوة الرسول دائماً هي الالتزام بالقرآن الكريم ومنهجه؛ مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم: ((تركت فيكم شيئين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي)).

أما الأستاذ ممدوح إسماعيل - الكاتب والمحامي الإسلامي المصري المعروف- فيقول: إن مثل هذه القناة بلا شك أسلوب جديد للتآمر على الفكر الإسلامي الصحيح، ونظراً لوجود صوفية كثيرين في الوطن العربي، وانتشار الجهل والبدع، وسيطرة المفسدين على وسائل الإعلام التي استطاعوا منها تنفير طائفة من الناس عن الفكر الإسلامي السلفي؛ فإني أتوقع أن تشكل رقماً مقلقاً في الإعلام.

وأضاف إسماعيل: أن هناك أهدافاً متعددة من وراء هذه القناة، فمنها:

أولاً: سحب جمهور القنوات السلفية إليها، وثانياً: تخدير الجماهير المسلمة بالفكر الصوفي وقولبته كما يريدون؛ لأنه فكر متساهل ويلبي ما تريده أهواء الناس، وثالثاً: محاولة تدمير وإلغاء الأفكار السلفية والفهم السلفي في التوحيد خاصة، وهو مما يدمر الأمة ويجعلها قبلة لأي تخريب وتغريب واحتلال، سواء كان عسكرياً أو ثقافياً.

وحول مدى احتمالات نجاح هذه القناة قال الأستاذ إسماعيل: إنه بلا شك يمكن أن تنجح هذه القناة، ولكن أظن أن ذلك سيكون عبر محاولات الإغراء بالقبول، أي: لن ينشر ويذاع مظاهر تدخين المخدرات كما يحدث في الموالد، والاختلاط السافر، والشركيات الواضحة جداً، حيث سيقومون بالتخطيط لاستغفال الناس.. وبالتالي فإنني أتوقع أن تشكل قلقاً وليس نجاحاً، وهذا القلق مبعثه أن القنوات السلفية رغم وضوح وصحة المنهج إلا أنها إعلامياً تحتاج إلى جهد مميز لترتقي، وثانياً: بلا

شك سوف تدعم القناة الصوفية من الدولة؛ لأنها سوف تحقق لهم رسالة سياسية؛ فضلاً عن وجود صوفيين في الحكم يهمهم نجاحها بكل طريقة.

وأضاف إسماعيل: كذلك فالنجاح كلمة لها مدلولاتها، لكن كما قلت: سوف تشكل قلقاً، بمعنى: أنها سوف تستقطب قطاعاً من الصوفية لتثبتهم على فسادهم، ولا يفوتنا أن استخدام الصوفية كورقة هامة في تغفيل الشعوب أمر مهم لم يغفل عنه المستعمرون منذ الحملة الفرنسية على مصر، حتى السفير الأمريكي الذي كان دائم الزيارة لقبر البدوي الصوفي والالتقاء مع الصوفية، فضلاً عن استخدامها من قبل النظم لتمرير أي قانون أو قرار بموافقة الصوفية ليصبغ بشكل ديني.

وأخيراً: الصوفية أخطر من الاحتلال العسكري؛ لأن أمر الاحتلال مفهوم ومعروف، لكن الصوفية تتغلغل داخل الفكر بثوب الإسلام، وهي تهدم الإسلام من الداخل ببدعها وعقيدتها الفاسدة.

أما الدكتور كمال حبيب - الكاتب والقيادي الإسلامي المعروف- فيقول: إننا دائماً في قضايا الإعلام والاجتماع والسياسة لا نأخذ الحدث مستقلاً عن سياقه، فالحديث عن إطلاق قناة صوفية لابد أن يكون في سياق أنهم يعتبرون أنفسهم طائفة تقوم بدور معين، وهو الدور الذي تحدث عنه الرئيس الأمريكي (جورج دبليو بوش) بقوله: إنه يريد أن يجعل الصراع الحضاري داخل الأمة الإسلامية وليس بين الإسلام والغرب، أي: أن يكون الصراع بين الحركات الإسلامية ذاتها، خاصة بين الصوفية وما يسمونها بالتيارات الوهابية والسلفية.. واليوم السياق يقول: إن الغرب يحاول طرح الإسلام الصوفي كنموذج متسامح تتميع فيه الحدود؛ كاللاهوت والناسوت، والشريعة الظاهرة والشريعة الباطنة، فالغربيون يرون أن التصوف أقرب في مرجعيته الفلسفية من المسيحية؛ لهذا فهم يحبون هذا النموذج لأنه يمكن أن يتصالح مع النموذج الأمريكي للإسلام، حيث لا يوجد فكرة أنا وهم (الآخر)، ولا يوجد ولاء أو براء وشعور بالذاتية، ومن ثم فإن السياق الذي طرحت فيه فكرة إطلاق القناة سياق قائم على تأجيج الصراع داخل الأمة.

وأضاف الدكتور حبيب: أن بعض الأبحاث حاولت الحديث عن دور الصوفية واكتشافه، وقد حاولوا تقديم أنفسهم بالمشاركة والقول في بعض الأمور السياسية؛ كالحديث عن التوريث والتمديد في مصر مثلاً، وهنا يتضح أن المسألة هي خلق تيار آخر غير موجود ولا يشعر به الناس، فهم يريدون إظهار التيار الصوفي بشكل قوي باعتباره قوى سياسية ضخمة في مواجهة قوى سياسية فاعلة.

وأوضح حبيب أن التيار الصوفي تيار متراجع؛ لأنه انطوائي، وغير قادر على أن يتعاطى مع مشاكل الناس الحقيقية، فهو تيار انسحابي، وهناك مشاكل مثل: الفقر، والبطالة، وفقدان الحرية، وغيرها، وليس للصوفية فيها رأي.. مشيراً إلى أن أي تيار يلتحق بالدولة يقضى عليه بالموت.

من جهته شدد الكاتب الصحفي الإسلامي الأستاذ عامر عبد المنعم: أن مثل هذه القنوات يجب ألا تثير قلق المسلمين، كما يجب ألا يبالغوا في تصورهم بمدى خطورتها، فمن حق أي طائفة أو فرقة أن تطلق قناة فضائية أو إذاعة لتعبر عن رأيها، وبالتالي لا يجب أن نبالغ في القلق منها، أو نبالغ في حجم ما يمكن أن تشكله هذه القنوات.

وأضاف عبد المنعم: أن أي قناة فضائية تخضع لمحاكمة الجمهور، والجمهور والرأي العام يشكلان ضغطاً شديداً على القنوات الفضائية تحديداً، وهو ما يدفع بهذه القنوات إلى الاعتدال وعدم التطرف، أو الدخول في مناطق تثير الاستهجان، وبالتالي فإن ما يجب أن نسعى إليه هو أن يكون الإعلام الفضائي الذي يطرح الإسلام غير صادم للآخرين، خاصة وأن التجربة حديثة، وستصحح نفسها مع الخبرة والوقت.

أما الصحفي مصطفى عبد الجواد - سكرتير تحرير موقع إسلام أون لاين- فيرى أن الحديث عن قناة فضائية تعبر عن التيارات والطرق الصوفية يبدو منطقياً، فالطفرة الأخيرة في عدد القنوات الفضائية العربية ونزوعها نحو التخصص؛ جعل الطريق ممهدة لذلك، لكن يبقى التساؤل حول طبيعة الرسالة والمضمون الذي ستقدمه هذه القناة.

فمن المؤكد أن للتدين الصوفي أتباعه الكثيرين، لكنهم مذاهب شتى؛ ولذا فإن القناة يمكنها أن تصنع وصفة للنجاح إذا ما ركزت على الرقائق والمواعظ السهلة، والتي تقرب مقاصد وتعاليم الدين للبسطاء والمسلمين العاديين، أما إذا ما انخرطت القناة في صراع ومعارك مع أصحاب التيارات الأخرى، أو ركزت على السلوكيات الشاذة لدى بعض المتصوفة؛ فإن ذلك قد يقلل من إمكانية نجاحها.

ولابد هنا أن نلفت إلى أن الكثير من الدعاة والوعاظ المحسوبين على التيار الصوفي، والذين يتمتعون بشعبية كبيرة، من الممكن أن يشكلوا ذخيرة ودفعة قوية لنجاح القناة.

وكيع بن الجراح

أحمد فريد

١- اسمه ومولده وصفته:

اسمه: وكيع بن الجراح بن مَلِيح الرؤاسي، أبو سفيان الكوفي، من قيس عيلان.

مولده: ولد سنة تسع وعشرين ومائة، قاله أحمد بن حنبل، وقال خليفة وهارون بن حاتم: ولد سنة ثمان وعشرين[١].

وروي عنه أنه قال: ولدت بأبة قرية من قرى أصبهان[٢].

صفته: قال الشاذكوني: قال لنا أبو نعيم يوماً: ما دام هذا التنين حياً ما يُفلِح أحدٌ معه.

قال الذهبي: كان وكيع أسمر ضخماً سميناً[٣].

وقال أبو داود: كان أعور[٤].

وقال سعيد بن منصور: قدم وكيع مكة وكان سميناً، فقال له الفضيل بن عياض: ما هذا السمن وأنت راهب العراق؟ قال: هذا من فرحي بالإسلام[٥].

وعن أبي جعفر الجمال قال: أتينَا وكيعاً فخرج بعد ساعة وعليه ثياب مغسولة، فلما بصرنا به فَزِعْنَا من النور الذي رأيناه يتلألأ من وجهه، فقال رجل بجنبي: أهذا ملَك؟ فتعجبنا من ذلك النور[٦].

٢- ثناء العلماء عليه:

قال محمد بن سعد: كان ثقةً مأموناً عالماً رفيعاً، كثير الحديث، حجة[٧].

وعن يحيى بن يمان قال: نظر سفيان إلى عيني وكيع فقال: ترون هذا الرؤاسي؟ لا يموت حتى يكون له شأن.

وقال يحيى بن يمان: مات سفيان الثوري فجلس وكيع بن الجراح في موضعه[٨].

وعن القعنبي قال: كنا عند حماد بن زيد سنة سبعين، وكان عنده وكيع، فلما قام قالوا: هذا راوية سفيان. فقال: هذا إن شئتم أرجح من سفيان[٩].

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت مروان يقول: ما وصف لي أحد إلا رأيته دون الصفة، إلا وكيع فإنه فوق ما وصف لي[١٠].

وعن يحيى بن معين قال: والله ما رأيت أحداً يحدث لله غير وكيع، وما رأيت رجلاً أحفظ من وكيع، ووكيع في زمانه كالأوزاعي في زمانه[١١].

وعن جرير الرازي قال: قدم ابن المبارك فقلت له: يا أبا عبد الرحمن! من خلفت بالعراق؟ قال: وكيع، قلت: ثم من؟ قال: ثم وكيع[١٢].

وقال محمد بن عامر المصيصي: سألت أحمد: وكيع أحب إليك أو يحيى بن سعيد؟ فقال: وكيع، فقلت: كيف فضلته على يحيى، ويحيى ومكانه من العلم والحفظ والإتقان ما قد علمت؟ قال: وكيع كان صديقاً لحفص بن غياث، فلما ولي القضاء هَجَرَه، وإن يحيى كان صديقاً لمعاذ بن معاذ، فلما ولي القضاء لم يهجره يحيى[١٣].

وعن عبد الرزاق قال: رأيت الثوري، وابن عيينة، ومعمراً، ومالكاً، ورأيت ورأيت، فما رأت عيناي قط مثل وكيع[١٤].

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: سمعت أبي يقول: كان وكيع حافظاً حافظاً، ما رأيت مثله[١٥].

وقال بشر بن موسى: سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما رأيت قط مثل وكيع في العلم والحفظ والإسناد والأبواب، مع خشوع وورع.

قال الذهبي: يقول هذا أحمد مع تحريه وورعه، وقد شاهد الكبار مثل هشيم، وابن عيينة، ويحيى القطان، وأبي يوسف القاضي وأمثالهم[١٦].

وقال الترمذي: سمعت أحمد بن الحسن: سئل أحمد بن حنبل عن وكيع وابن مهدي فقال: وكيع أكبر في القلب، وعبد الرحمن إمام[١٧].

وعن جرير قال: جاءني ابن المبارك فقلت له: يا أبا عبد الرحمن! من رجل الكوفة اليوم؟ فسكت عني ثم قال: رجل المصرين وكيع[١٨].

وقال عباس الدوري: ذاكرت أحمد بن حنبل بحديث من حديث شعبة فقال لي: من حدثك بهذا؟ فقلت: شبابة بن سوار. قال: لكن حدثني من لم تر عيناك مثله.. وكيع بن الجراح[١٩].

وقال علي بن عثمان النفيلي: قلت لأحمد بن حنبل: إن أبا قتادة يتكلم في وكيع بن الجراح، وعيسى بن يونس، وابن المبارك، فقال: من كذب أهل الصدق فهو الكذاب[٢٠].

وقال أحمد العجلي: وكيع كوفي ثقة عابد صالح أديب، من حُفاظ الحديث، وكان مفتياً[٢١].

٣- عبادته رحمه الله:

عن يحيى بن أكثم قال: صحبت وكيعاً في الحضر والسفر، وكان يصوم الدهر، ويختم القرآن كل ليلة[٢٢].

قال الذهبي: هذه عبارة يخضع لها، ولكنها من مثل إمام من الأئمة الأثرية مفضولة، فقد صح نهيه عليه السلام عن صوم الدهر، وصح أنه نهى أن يقرأ القرآن في أقل من ثلاث، والدين يُسْر، ومتابعة السنة أولى، فرضي الله عن وكيع، وأين مثل وكيع[٢٣]؟!

وعن يحيى بن أيوب حدثني بعض أصحاب وكيع الذين كانوا يلزمونه أن وكيعاً كان لا ينام حتى يقرأ جزأه من كل ليلة ثلث القرآن ثم يقوم في آخر الليل فيقرأ المفصل ثم يجلس فيأخذ في الاستغفار حتى يطلع الفجر[٢٤].

وعن أحمد بن سنان قال: رأيت وكيعاً إذا قام في الصلاة ليس يتحرك منه شيء، لا يزول، ولا يميل على رجل دون الأخرى[٢٥].

وعن سفيان بن وكيع قال: كان أبي يجلس لأصحاب الحديث من بكرة إلى ارتفاع النهار، ثم ينصرف فيقيل، ثم يصلي الظهر، ويقصد الطريق إلى المشرعة التي يصعد منها أصحاب الروايا فيريحرن نواضحهم، فيعلمهم من القرآن ما يؤدون به الفرائض إلى حدود العصر، ثم يرجع إلى مسجده فيصلي العصر، ثم يجلس يدرس القرآن ويذكر الله إلى آخر النهار، ثم يدخل منزله، فيقدم إليه إفطار، وكان يفطر على نحو عشرة أرطال من الطعام، ثم تقدم إليه قرابة فيها نحو من عشرة أرطال من نبيذ، فيشرب منها ما طاب له على طعامه، يجعلها بين يديه، ثم يقوم فيصلي ورده من الليل، كلما صلى شيئاً شرب منها حتى ينفذها ثم ينام[٢٦].

٤- حفظه رحمه الله:

عن إبراهيم بن الشماس قال: لو تمنيت أتمنى عقل ابن المبارك وورعه، وزهد ابن فضيل ورقته، وعبادة وكيع وحفظه، وخضوع عيسى بن يونس، وصبر حسين الجعفي، لم يتزوج ولم يدخل في شيء من أمر الدنيا[٢٧].

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سمعت أبي وذكر وكيعاً فقال: ما رأيت أحداً أوعى للعلم منه ولا أحفظ[٢٨].

وعن بشر بن موسى قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل يقول: ما رأيت رجلاً قط مثل وكيع في العلم والحفظ والإسناد والأبواب، مع خشوع وورع[٢٩].

وعن علي بن خَشْرم: ما رأيت بيد وكيع كتاباً قط، إنما هو حفظ، فسألته عن أدوية الحفظ فقال: إن علمتك الدواء استعملته؟ قلت: إي والله. قال: ترك المعاصي، ما جربت مثله للحفظ[٣٠].

وعن يحيى بن معين قال: ما رأيت أحفظ من وكيع[٣١].

وقال أبو حاتم الرازي: وكيع أحفظ من ابن المبارك[٣٢].

وقال إسحاق بن راهويه: حفظي وحفظ ابن المبارك تكلف، وحفظ وكيع أصلي، قام وكيع فاستند وحدَّث بسبعمائة حديث حفظاً[٣٣].

٥- أدبه وكرمه رحمه الله:

عن السائب سلم بن جنادة قال: جالست وكيع بن الجراح سبع سنين فما رأيته بزق، وما رأيته مس والله حصاة بيده، وما رأيته جلس مجلسه فتحرك، وما رأيته إلا مستقبل القبلة، وما رأيته يحلف بالله[٣٤].

وعن محمد بن أبي الصباح قال: كان وكيع بن الجراح إذا أراد أن يحدث احتبى، فإذا احتبى سأله أصحاب الحديث، فإذا نزع الحبوة لم يسألوه، وكان إذا حدث استقبل القبلة[٣٥].

وروي عن وكيع أن رجلاً أغلظ له، فدخل بيتاً فَعَفَرَ وجهه، ثم خرج إلى الرجل فقال: زد وكيعاً بذنبه، فلولاه ما سلطت عليه[٣٦].

عن سعيد بن عفير قال: أخبرني رجل من أهل هذا الشأن ثقة من أهل المروءة والأدب قال: جاء رجل إلى وكيع بن الجراح فقال له: إني أُمتُ بحرمة. قال: ما حرمتك؟ قال: كنت تكتب من محبرتي في مجلس الأعمش. قال: فوثب وكيع فدخل منزله فأخرج له صُرةً فيها دنانير فقال: اعذرني فإني ما أملك غير هذا[٣٧].

٦- محنته رحمه الله:

قال الذهبي: وهي غريبة تورط فيها ولم يرد إلا خيراً، ولكن فاتته سكتة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((كفى بالمرء إثما أن يحدث بكل ما سمع، فليتق عبد ربه ولا يخافن إلا ذنبه))[٣٨].

قال علي بن خشرم: حدثنا وكيع عن إسماعيل بن أبي خالد بن عبد الله البهي: أن أبا بكر الصديق جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته فأكب عليه فقبله وقال: بأبي وأمي! ما أطيب حياتك وميتتك! ثم قال البهي: وكان ترك يوماً وليلة حتى ربا بطنه وانشقت خنصراه. وقال ابن خشرم: فلما حدث وكيع بهذا بمكة اجتمعت قريش، وأرادوا صلب وكيع، ونصبوا خشبة لصلبه، فجاء سفيان بن عيينة فقال لهم: الله الله! هذا فقيه أهل العراق، وابن فقيه، وهذا حديث معروف.

قال سفيان: ولم أكن سمعته، إلا أني أردت تخليص وكيع[٣٩].

قال علي بن خشرم: سمعت الحديث من وكيع بعدما أرادوا

صلبه، فتعجبت من جسارته، وأخبرت أن وكيعاً أصبح فقال: إن عدة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم عمر، قالوا: لم يمت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأراد الله أن يريهم آية الموت[٤٠].

قال الذهبي: فهذه زلة عالم، فما لوكيع ولرواية هذا الخبر المنكر المنقطع الإسناد!! كادت نفسه أن تذهب غلطاً، والقائمون عليه معذورون بل مأجورون، فإنهم تخيلوا من إشاعة هذا الخبر المردود غضاً ما لمنصب النبوة، وهو في بادئ الرأي يوهم ذلك؛ ولكن إذا تأملته فلا بأس إن شاء الله بذلك، فإن الحي قد يربو جوفه وتسترخي مفاصله وذلك تفرع من الأمراض، وأشد الناس بلاءً الأنبياء[٤١]. وإنما المحذور أن تُجَوز عليه تغير سائر موتى الآدميين ورائحتهم، وأكل الأرض لأجسادهم، والنبي صلى الله عليه وسلم مفارق لسائر أمته في ذلك، فلا يبلى ولا تأكل الأرض جسده، ولا يتغير ريحه، بل هو الآن وما زال أطيب ربما من المسك، وهو حي في لحده حياة مثله في البرزخ التي هي أكمل من حياة سائر النبيين، وحياتهم بلا ريب أتم وأشرف من حياة الشهيد الذين هم بنص الكتاب ((بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)) [آل عمران:١٦٩].

٧- اتباعه للسنة رحمه الله:

قال أبو حاتم الرازي: حدثنا أحمد بن حنبل حدثنا وكيع بحديث في الكرسي قال: فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وقال: أدركنا الأعمش والثوري يحدثون بهذه الأحاديث لا ينكرونها[٤٢].

وعن يحيى بن يحيى التميمي: سمعت وكيعاً يقول: من شك أن القرآن كلام الله - يعني: غير مخلوق- فهو كافر[٤٣].

وقال أحمد بن إبراهيم الدورقي: سمعت وكيعاً يقول: نسلم هذه الأحاديث كما جاءت، ولا نقول: كيف كذا؟ ولا لم كذا؟ يعني: حديث: ((يحمل السماوات على إصبع))[٤٤].

٨- درر من أقواله:

عن إبراهيم بن شماس قال: سمعت وكيع بن الجراح يقول: من لم يأخذ أهبة الصلاة قبل وقتها لم يكن وقرها[٤٥].

وقال وكيع: من تهاون بالتكبيرة الأولى فاغسل يديك منه[٤٦].

عن الفضل بن محمد البيهقي قال: سمعت وكيعاً يقول - وقد جاءه رجل يناظره في شيء من أمر المعاش أو الورع- فقال له وكيع: من أين تأكل؟ قال: ميراثاً ورثته عن أبي، قال: من أين هو لأبيك؟ قال: ورثه عن أبيه، قال: من أين هو كان لجدك؟ قال: لا أدري، فقال له وكيع: لو أن رجلاً نذر لا يأكل إلا حلالاً ولا يلبس إلا حلالاً ولا يمشي إلا في حلال لقلنا له: اخلع ثيابك وارم بنفسك في الفرات، ولكن لا تجد إلا السعة[٤٧].

ثم قال وكيع: لو أن رجلاً بلغ في ترك الدنيا مثل سلمان وأبي ذر وأبي الدرداء ما قلنا له زاهداً؛ لأن الزُّهد لا يكون إلا على ترك الحلال المحض، والحلال المحض لا نعرفه اليوم، فالدنيا عندنا حلال وحرام وشبهات، فالحلال حساب، والشبهات عتاب، فأنزل الدنيا بمنزلة الميتة، وخذ منها ما يقيمك، فإن كانت حلالاً كنت قد زهدت فيها، وإن كانت حراماً كنت قد أخذت منها ما يقيمك؛ لأنه لا يحل من الميتة إلا قدر ما يقيمك، وإن كانت شبهات كان فيها عتاب يسير[٤٨].

وعن أحمد بن أبي الحواري قال: سمعت وكيعاً يقول: إنما العاقل من عقل عن الله أمره، وليس من عقل أمر دنياه[٤٩].

وعن عبد الله بن ضبيق قال: قال وكيع: هذه بضاعة لا يرتفع فيها إلا صادق[٥٠].

وعن علي بن خشرم قال: سمعت وكيعاً يقول: لا يكمل الرجل حتى يكتب عمن هو فوقه، وعمن هو مثله، وعمن هو دونه[٥١].

٩- شيوخه وتلامذته:

شيوخه:

روى عن أبيه، وإسماعيل بن أبي خالد، وأيمن بن نابل، وعكرمة بن عمار، وهشام بن عروة، والأعمش، وتوبة أبي صدقة، وجرير بن حازم، وعبد الله بن سعيد بن أبي هند، ومعروف بن خربوذ، وابن عون، وعبد الرحمن بن الغسيل، وأبي خلدة خالد بن دينار، وسلمة بن نبيط، وعيسى بن طهمان، ومصعب بن سليم، ومسعر بن حبيب الجرمي، وعبد المجيد بن وهب العقيلي، وابن جريج، والأوزاعي، ومالك، وأسامة بن زيد الليثي، وإسرائيل، وإسماعيل بن مسلم العبدي، والبختري بن المختار، وبدر بن عثمان، وجعفر بن برقان، وحاجب بن عمر، وحريث بن أبي مطر، وحنظلة بن أبي سفيان، والحسن وعلي ابني صالح بن حي، وزكريا بن أبي زائدة، وسعيد بن عبيد الطاحي، وسفيان الثوري، وشعبة، وطلحة بن يحيى بن طلحة، وعبد الحميد بن جعفر، وعثمان الشحام، وعزرة بن ثابت، وعلي بن المبارك، وعمر بن ذر، وعمران بن حدير، ومعاوية بن أبي مزرد، ومعروف بن واصل، ونافع بن عمر الجمحي، وموسى بن علي بن رباح، ويزيد بن إبراهيم التستري، وفضيل بن غزوان، وكهمس بن الحسن، ومالك بن مغْوَل، وابن أبي ذئب، وابن أبي ليلى، ومحمد بن قيس الأسدي، ومساور الوراق، وهشام الدستوائي، وهشام بن سعد، ويعلى بن الحارث، وأبي سنان الشيباني الصغير، وأفلح بن حميد، وحماد بن سلمة، وحماد بن نجيح، وزمعة بن صالح، وسعد بن أوس العبسي، وسعيد بن عبد العزيز التنوخي، وسليمان بن المغيرة، وصالح بن أبي الأخضر، وعبد الله بن عمر العمري، وعبد العزيز بن أبي رواد، وفضيل بن

مرزوق، وقرة بن خالد، ومبارك بن فضالة، وموسى بن عبيدة الربذي، ونافع بن عمر الجمحي، وهمام بن يحيى، ويونس بن أبي إسحاق، وأبي شهاب الحناط الأكبر، وأبي هلال الراسبي، ويزيد بن زياد بن أبي الجعد، وخلق كثير[٥٢].

تلامذته:

روى عنه أبناؤه: سفيان، ومليح، وعبيد، ومستمليه محمد بن أبان البلخي، وشيخه سفيان الثوري، وعبد الرحمن بن مهدي، وأحمد، وعلي، ويحيى، وإسحاق، وابنا أبي شيبة، وأبو خيثمة، والحميدي، والقعنبي، والأشج، وعلي بن خشرم، ومسدد، ومحمد بن سلام، وابن أبي عمر، ونصر بن علي، ويحيى بن يحيى النيسابوري، ومحمد بن الصباح الدولابي، وإبراهيم بن سعد الجوهري، ومحمد بن رافع، وآخرون آخرهم إبراهيم بن عبد الله العبسي القصار[٥٣].

١٠- وفاته رحمه الله:

قال علي بن عثام: مرض وكيع فدخلنا عليه فقال: إن سفيان أتاني فبشرني بجواره، فأنا مبادر إليه[٥٤].

قال أبو هشام الرفاعي: مات وكيع سنة سبع وتسعين ومائة يوم عاشوراء، فدفن بفيد، يعني: راجعاً من الحج[٥٥].

قال أحمد بن حنبل: حج وكيع سنة سبع وتسعين ومات بفيد[٥٦].

قال الذهبي: عاش ثمانياً وستين سنة سوى شهر أو شهرين[٥٧].

الهوامش

(١) سير أعلام النبلاء (١٤١/٩).

(٢) تهذيب الكمال (٤٦٣/٣٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١١٤٦/٩).

(٤) تهذيب الكمال (٤٦٣/٣٠).

(٥) سير أعلام النبلاء (١٥٦/٩).

(٦) سير أعلام النبلاء (١٥٧/٩).

(٧) طبقات ابن سعد (٣٩٤/٦).

(٨) تاريخ بغداد (٤٦٩/١٣).

(٩) تاريخ بغداد (٤٦٩/١٣).

(١٠) حلية الأولياء (٣٧٠/٨).

(١١) حلية الأولياء (٣٧/٨).

(١٢) حلية الأولياء (٣٧١/٨).

(١٣) سير أعلام النبلاء (١٤٤/٩).

(١٤) سير أعلام النبلاء (١٤٦/٩، ١٤٧).

(١٥) سير أعلام النبلاء (١٤٧/٩).

(١٦) سير أعلام النبلاء (١٤٧/٩).

(١٧) سير أعلام النبلاء (١٤٨/٩).

(١٨) سير أعلام النبلاء (١٤٨/٩).

(١٩) تهذيب الكمال (٤٧٢/٣٠).

(٢٠) تهذيب الكمال (٤٧٢/٣٠)

(٢١) تهذيب الكمال (١٥٢/٩).

(٢٢) سير أعلام النبلاء (١٤٢/٩).

(٢٣) سير أعلام النبلاء (١٤٣/٩).

(٢٤) سير أعلام النبلاء (١٤٨/٩، ١٤٩).

(٢٥) سير أعلام النبلاء (١٥٧/٩).

(٢٦) سير أعلام النبلاء (١٤٩/٩- ١٥٠)، والمشرعة: المواضع التي ينحدر إلى الماء منها، والروايا: جمع رواية المزادة فيها الماء.

(٢٧) تاريخ بغداد (٤٧٣/١٣)، وصبر حسين الجعفي صبر مذموم، فالزواج من سنة النبي صلى الله عليه وسلم.

(٢٨) تاريخ بغداد (٤٧٤/١٣).

(٢٩) تاريخ بغداد(٤٧٤/١٣).

(٣٠) سير أعلام النبلاء (١٥١/٩).

(٣١) سير أعلام النبلاء (١٥٣/٩).

(٣٢) سير أعلام النبلاء (١٥٣/٩).

(٣٣) سير أعلام النبلاء (١٥٧/٩).

(٣٤) حلية الأولياء (٣٦٩/٨) وسير أعلام النبلاء (١٥٥/٩).

(٣٥) حلية الأولياء (٣٦٩/٨).

(٣٦) سير أعلام النبلاء (١٥٥/٩).

(٣٧) تاريخ بغداد (٤٧٠/١٣).

(٣٨) سير أعلام النبلاء (١٥٩/٩)، والحديث رواه أبو داود ومسلم في مقدمة صحيحه من حديث أبي هريرة وعنده "كفى بالمرء كذباً".

(٣٩) سير أعلام النبلاء (١٦٠/٩).

(٤٠) سير أعلام النبلاء (١٦٠/٩).

(٤١) الحديث رواه الترمذي (٢٤٣/٩) في كتاب الزهد، وقال: هذا حديث صحيح.

(٤٢) سير أعلام النبلاء (١٦٥/٩).

(٤٣) سير أعلام النبلاء (١٦٥/٩).

(٤٤) سير أعلام النبلاء (١٦٥/١)، والحديث رواه البخاري (٨٢٣/٨) في التفسير، ومسلم (٢٧٨٦) في القيامة.

(٤٥) حلية الأولياء (٣٧٠/٨).

(٤٦) حلية الأولياء (٣٧٠/٨).

(٤٧) حلية الأولياء (٣٧٠/٨).

(٤٨) حلية الأولياء (٣٧٠/٨).

(٤٩) حلية الأولياء (٣٧٠/٨).

(٥٠) حلية الأولياء (٣٧٠/٨).

(٥١) سير أعلام النبلاء (١٥٩/٩).

(٥٢) تهذيب التهذيب (١٠٩/١١، ١١٠).

(٥٣) تهذيب التهذيب (١١٠/١١).

(٥٤) سير أعلام النبلاء (١٦٦/٩).

(٥٥) سير أعلام النبلاء (١٦٦/٩). وفيد بلدة على النصف بين مكة والكوفة.

(٥٦) سير أعلام النبلاء (١٦٦/٩).

(٥٧) سير أعلام النبلاء (١٦٦/٩).

علي جمعة والطواف بالقبور

أكرم مبارك عصبان

إن من أتم النصح وآكده التحذير من الشرك وسد الذرائع المفضية إليه، وبيان خطورة العقوبة المترتبة عليه، ونقيض ذلك هو الغش البين لعامة المسلمين؛ من تهوين جناب الشرك ووسائله، وتبرير أفعال العوام الواقعين فيه، ولئن يوضح ذلك لهم حتى يحذروا منه ويبتعدوا عنه خير من التلبيس الذي يسيغه لهم، ولا يغير من حقيقة الأمر شيئاً.

ومن تأمل هديه عليه الصلاة والسلام في محاربة أسبابه فهم هذه الجملة، وكذا الصحابة من بعده، وقد حرص فقهاء الإسلام فأفردوا من كتب الفقه: باب الردة، وهذه التوطئة نريد من خلالها أن نلج إلى مناقشة آراء د/ علي جمعة مفتي مصر حول مسألة الطواف بالقبور التي أثارها د/محمد عبد الغفار الشريف في جريدة الوطن الكويتية العدد (١٠٨٥٧)، ونضع بين يدي المناقشة هذه الوقفات الأربع:

الأولى: لقد فرح د/جمعة بما نقله في مسألة الطواف بالقبور بأن شارع بكفر فاعلها بها، وهو إلباس بالغ في الإيهام، فأفسد المسألة من حيث أراد إصلاحها، والحقيقة أن مناط من تأقوال العلماء فيها دائرة بين الكراهة والتحريم فقام في تأصيله الثلاثة الأصول بإلحاق كل الأقوال والأفعال التي حكم الكلم في الطواف بالقبر ممن نقل عنه مجردة عن غيرها إنما هو النهي لما فيها من التعظيم البالغ كأنه في مرتبة الكعبة، ولو كان هذا التعظيم حقيقة للقبر أو لصاحبه لكفر المعظم، كما هو مناط الذين أطلقوا الشرك فيها، فالتشبه بذلك مكروه عند بعضهم، وينبغي أن يكون كراهة تحريم كما هو قول الجمهور، فخلط د/جمعة بين المناطين، وأنزل الأول المقيد بمسألة الطواف التي هي أخية للسجود للقبر والاستغاثة بصاحبه عنده - كما سيأتي- ابتغاء التسوية بين المناطين، ثم الاحتجاج بعد ذلك عليهما معاً بنقل أقوال العلماء في الأول منهما.

الثانية: أن الطواف الذي يدندن حول ويقرنه بالسجود للقبر، ويشفع ذلك بالحديث عن الاستعانة والدعاء لغير الله هو مضاد لإخلاص التوحيد؛ لأنه صرف العبادة لغير الله، ولذلك يطلق العلماء الشرك على فاعلها في سياق الأفعال التي تقترن به من غير تفصيل قال ابن القيم في حديثه عن مكائد الشيطان في إضلال القبوريين: (يتخذ قبره وثناً يعكف عليه، ويوقد عليه القناديل، ويعلق عليه الستور، ويبنى عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله واستلامه، والحج إليه والذبح عنده، ثم ينقله - أي: الشيطان - درجة أخرى إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيداً ومنسكاً، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم) إغاثة اللهفان (٢١٧/١).

الثالثة: ما ذكر من الطواف بالقبور إنما هو ثمرة لذرائع أخرى قد سدها الشرع، فخالفها أولئك لما تجرأوا على إقامة القباب على القبور، ووضع التوابيت عليها، وتعظيم الأموات، وأما لو كانت القبور على السنة النبوية مسواة بالأرض لما وجدت هذه المسألة سبيلاً، قال الشوكاني: (فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ منه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور، ووضع الستور عليها، وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسين؛ فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عيه قبة فدخلها ونظر على القبور الستور الرائعة، والسرج المتلألأة، وقد سطعت حوله مجامر الطيب؛ فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيماً لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين وأشد وسائله إلى ضلال العباد ما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه، فيصير في عداد المشركين) (ص: ٧٦).

الوقفة الرابعة: كلام شاهد عدل على ما يكون في مثل هذا الطواف، وهو رشيد رضا، يصور جماعة من هؤلاء القبوريين فيقول: (تطوف حول قبر السيد البدوي الذي تحول إلى كعبة ثانية، وكانت هذه الجماعة تطلب من السيد لما شاع بينها من القصص والحكايات حول مقدرته العجيبة في قضاء الحوائج) دمعة على التوحيد (ص:٦٤).

قوله: (الأصل الأول الذي في الأفعال التي تصدر من المسلم: أن تحمل على الأوجه التي لا تتعارض مع أصل التوحيد، ولا يجوز أن نبادر برميه بالكفر أو الشرك؛ فإن إسلامه قرينة قوية توجب علينا ألا نحمل أفعاله على ما يقتضي الكفر..).

وهذا أصل مبني على قواعد غلاة المتكلمين من مرجئة الجهمية الذين تبعهم من زعم أن الشرك لا يكون في الأفعال؛ كالسجود لغير الله والذبح له والاستغاثة به ودعائه من دون الله، ولا يكون ذلك شركاً إلا مع الاعتقاد، وهو ما لا سبيل إلى معرفته إلا بالتصريح بالجحود، والعموم الوارد في لفظة (الأفعال) في عبارة د/ جمعة يفيد ذلك، وزاده توضيحاً بذكر الأمثلة التي سنناقشها، كما أن المراد بلفظ (الأفعال) أيضاً ما يقابل

التصديق، فتشمل عمل اللسان، فكما يدخل دعاء غير الله يدخل أيضاً سب الله تعالى، وقد صرح في التمثيل على الأصل بمثالين للأفعال: (لفظي وفعلي).

والتكفير عند أهل السنة حكم شرعي يكون بالقول والفعل، وضابط القول والفعل المكفرين هي التي نص الشارع على كفر من أتى بها، وهذا واضح في كتب العقائد، وقد أفاض الفقهاء في ذكره في أبواب الردة من كتب الفقه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (وبالجملة فمن قال أو فعل ما هو كفر كفرَ بذلك) الصارم المسلول (ص: ١٧٧).

وأما اشتراط الاعتقاد في قول الكفر فقد رد ابن الوزير على قائله بما نصه: (وعلى هذا لا يكون شيء من الأفعال والأقوال كفراً إلا مع الاعتقاد، حتى قتل الأنبياء، والاعتقاد من السرائر المحجوبة، فلا يتحقق كفر كافر قط إلا بالنص الخاص في شخص) إيثار الحق (ص: ٤١٩).

وقد ذكر العلماء أنواعاً من هذه الأفعال التي يكفر فاعلها دون اشتراط الاعتقاد، نذكر منها:

قال الإمام أحمد في رده على جهم في مذهبه الفاسد: (يلزمه أن يقول إذا أقر ثم شد الزنار في وسطه، وصلى للصليب، وأتى الكنائس والبيع، وعمل الكبائر كلها، إلا أنه في ذلك مقر بالله، فيلزمه أن يكون عنده مؤمناً، وهذه الأشياء من أشنع ما يلزمهم). كتاب الإيمان (ص: ٣٨٤).

وقال إسحاق بن راهويه: (قد أجمع المسلمون أن من سب الله وسب رسوله عليه الصلاة والسلام، أو دفع شيئاً مما أنزل الله، أو قتل نبياً من الأنبياء أنه كافر بذلك، وإن كان مقراً بما أنزل الله) الصارم المسلول (ص:٥١٢).

وقال القاضي عياض: (وكذلك نكفر بكل فعل أجمع المسلمون أنه لا يصدر إلا من كافر، وإن كان صاحبه مصرحاً بالإسلام مع فعله ذلك الفعل؛ كالسجود للصنم والشمس والقمر والصليب والنار، والسعي إلى الكنائس والبيع مع أهلها بزيهم من شد الزنانير، وفحص الرؤوس، فقد أجمع المسلمون أن هذا الفعل لا يوجد إلا من كافر، وأن هذه الأفعال علامة على الكفر وإن صرح فاعلها بالإسلام). الشفاء.

ومن لم يقل بهذا القول فقد استدرك على أبي بكر الصديق رضي الله عنه في قتال أهل الردة، وادعى أنه قتل قوماً أقروا بالدين، قال أبو يعلى: (وأيضاً فإنه إجماع الصحابة، وذلك أنهم نسبوا الكفر إلى مانع الزكاة، وقاتلوه، وحكموا عليه بالردة، ولم يفعلوا ذلك بمن ظهر منه الكبائر، ولو كان الجميع كفراً لسوّوا بين الجميع) مسائل الإيمان (ص:٣٣٠).

وقد درج الفقهاء في باب الردة من كتب الفقه وكذا الفتاوى على أن الكفر قد يكون بالقول والفعل والاعتقاد، قال السبكي: (التكفير حكم شرعي سببه جحد الربوبية، أو الوحدانية، أو الرسالة، أو قول أو فعل حكم الشارع بأنه كفر وإن لم يكن جحداً) الفتاوى.

وأدرك المتأثرون بالأشاعرة والماتريدية أن تعريف الإيمان بأنه التصديق فقط، أو التصديق مع النطق بالشهادتين عند المرجئة غير مانع لانتفاء الإيمان مع فعل بعض الأمور التي تعمدها كفر، فاحتاجوا إلى إضافة قيد لتعريف الإيمان بهذا المفهوم، قال الزبيدي: (وعلى القول بأن مسمى الإيمان التصديق بالقلب - كما هو قول الأشعري والماتريدي- أو بالقلب واللسان - كما هو مذهب الحنفية- فقد ضم إليه في تحقق الإيمان أمور الإخلال بها إخلال بالإيمان اتفاقاً، كترك كل من سجود الصنم، وقتل نبي، أو استخفاف به والمصحف... قال الإسفرائيني: فإذا وجد شيء من هذه الإخلالات السابق ذكرها دلنا على أن التصديق الذي هو الإيمان مفقود من قلبه) إتحاف السادة.

وقال ابن حجر العسقلاني: (فمن أقر أجريت عليه الأحكام في الدنيا ولم يحكم عليه بكفر، إلا إن اقترن به فعل يدل على كفره كالسجود للصنم) فتح الباري (٦٣/١).

وقد نقل الإجماع عن تقي الدين السبكي على تكفير من سجد للصنم ونحوه ممن لا تصريح بالجحود فيه، وإن كان معتقداً بالإسلام إجمالاً عاملاً بالواجبات. فتح الباري (٢٩٩/١٢).

وقال ابن حجر الهيتمي: (وإن نحو السجود لنحو الشمس من مصدق بما جاء به النبي عليه الصلاة والسلام كفر إجماعاً، ثم إن كونه كفراً بأنه يدل على عدم التصديق ظاهراً، ونحن نحكم بالظاهر، ولذا حكمنا بعدم إيمانه؛ لأن عدم السجود لله داخل في حقيقة الإيمان) التحفة، باب الردة.

وقال ابن حجر الهيتمي أيضاً: (والحاصل أن الإيمان على هذه الطريقة التي هي طريقة المتكلمين له حيثيات النجاة في الآخرة، وشرطها التصديق فقط، وإجراء أحكام الدنيا، ومناطها النطق بالشهادتين مع عدم السجود لغير الله، ورمي المصحف بقاذورة، وغير ذلك من الصور التي حكم الفقهاء بأنها كفر): التحفة.

وقولهم: أن ذلك أمارة للكفر أو دال عليه ناشئ من تعريف الإيمان عند المرجئة وحصره في التصديق، وهو ليس صحيحاً؛ بل السجود للصنم وغيره مما ذكروه كفر في حد ذاته، وشرك بالله تعالى في العبادة، وأما أنه كافر في الظاهر وقد يكون مؤمناً في الباطن وناجياً في الآخرة فإنه من كيس غلاة المرجئة.

والأشاعرة الذين زعموا أن من فعل ما يكفر به كفر، وعللوا ذلك بأنه لانتفاء التصديق، إنما هو للجمع بين ما قرروه في مسمى الإيمان، وبين ما ذكره الفقهاء من حصول الكفر بمجرد الأفعال المكفرة، ويتضح هذا في مسألة من سب الله التي لم يجدوا مخرجاً في إيجاد هذا التوافق فيها.

قال ابن حزم: (وأما الأشاعرة فقالوا: إن شتم من أظهر الإسلام لله تعالى ولرسوله بأفحش ما يكون من الشتم، وإعلان الكذيب بهما باللسان بلا تقية ولا حكاية، والإقرار بأنه يدين بذلك ليس شيء من ذلك كفراً، ثم لما خشوا مبادرة جميع أهل الإسلام لهم فقالوا: لكنه دليل على أن في قلبه كفراً). الملل والنحل (٧٥/٥).

وقال شيخ الإسلام: (اعترف الأشاعرة بما في أقوالهم من التناقض فالتزموا أن كل من حكم الشارع بكفره فإنه ليس في قلبه من معرفة الله ولا معرفة رسوله، وقد أنكر عليهم هذا جماهير العقلاء وقالوا: هذه مكابرة وسفسطة). كتاب الإيمان (ص:١٤٠).

وقال أيضاً: (ثم رأوا أن الأمة قد كفرت الساب فقالوا: إنما كفر لأن سبه دليل على أنه لم يعتقد أنه حرام، واعتقاد حله تكذيب للرسول، فكفر بهذا التكذيب لا بتلك الإهانة، وإنما الإهانة دليل على التكذيب). الصارم المسلول (ص:٤٩١).

فالذين قالوا بأن من أتى بقول أو فعل مكفرين كفر ظاهراً وباطناً في الدنيا والآخرة من الفقهاء والأشاعرة فقد وافقوا أهل السنة، واختلفوا في تفسير ذلك، قال شيخ الإسلام: (قولهم: كل من كفره الشارع فإنما كفره لانتفاء تصديق القلب بالرب تبارك وتعالى، وكثير من المتأخرين لا يميزون بين مذاهب السلف وأقوال المرجئة والجهمية لاختلاط هذا بهذا في كلام كثير منهم). الإيمان (ص: ٣٦٤).

وأما القائلون بكفره ظاهراً في أحكام الدنيا وقد يكون مؤمناً في الباطن إذا كان مصدقاً بقلبه، وإنما جعلوا الأقوال والأفعال دالة على الكفر لإجراء أحكام الدنيا؛ فهذا قول الغلاة من المرجئة، قال شيخ الإسلام: (ولهذا كفر السلف كوكيع بن الجراح وأحمد بن حنبل وأبي عبيدة وغيرهم أصحاب هذه المقالة؛ لأنها تكذيب بخبر الله تعالى بأن هذا كافر ظاهراً وباطناً، وهم يقولون: يجوز أن يكون مؤمناً في الباطن). الإيمان (ص: ١٨٨).

والخلاصة: أن من أتى بمكفر من قول أو فعل نص الشارع عليهما فإنه يكفر بذلك، من غير تقييد كفره باشتراط الاعتقاد، وعلى ذلك أهل السنة، ونص عليه الفقهاء، ووافقهم الأشاعرة مع الاختلاف في التفسير، وخالف غلاة المرجئة فحكموا بكفره ظاهراً وجوزوا أن يكون مؤمناً باطناً، ولكن د/ جمعة قد تبع قول جهمية المرجئة الذين لا يحكمون بتكفير من أتى بمكفر من قول أو فعل ما دام عنده قرينة الإسلام، ولم يقترب من الأشاعرة أو مرجئة الفقهاء فضلاً عن أهل السنة، وهذه الأقوال المكفرة التي ذكرها العلماء تلزمه؛ فإن لم يلتزمها فقد نقض أصله، وإلا فقد نادى على نفسه باتباع الغلاة، نعوذ بالله من الخذلان!

قوله: (وقد عبر الإمام مالك عن ذلك بقوله: ((من صدر عنه ما يحتمل الكفر من تسعة وتسعين وجهاً ويحتمل الإيمان من وجه نحمل أمره على الإيمان)).

هذه الجملة عليها عدة ملاحظات هي:

الأولى: أن الاستدلال بها في هذا الموضع في غير موضعه؛ لأن مراد قائلها هو في الحكم على المعين، فيكون الاستدلال من هذه الحيثية فيه جهل، وأما نسبة قائلها إلى عدم الحكم بما حكم الشارع أنه كفر ففيه ظلم.

الثانية: لم يذكر الدكتور مصدر نسبتها إلى الإمام مالك؛ فإن صحت عنه فذاك، وإلا فالمشهور أنها لبعض الأحناف، كما قال جمال الدين القاسمي: (لما استفحل الرمي بالتكفير والتضليل لخيار العلماء في منتصف قرون الألف الأولى من الهجرة ضجت عقلاء الفقهاء، وصوبت سهام الردود في وجوه زاعمي ذلك، حتى قالت الحنفية عليهم الرحمة ما معناه: لو أمكن أن يكفر المرء في أمر من تسعة وتسعين وجهاً ومن وجه واحد لا يكفر؛ يرجح عدم التكفير لخطره في الدين). الجرح والتعديل (ص: ٣٩).

الثالثة: أن تحذير الشارع من خطورة التكفير قد جاء مبيناً في النصوص الشرعية بما يغني، قال تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا))[النساء:٩٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنه مرفوعاً: (أيما رجل قال لأخيه يا كافر؛ فقد باء بها أحدهما). رواه الشيخان، وفي بيان ذلك يقول الإمام الشوكاني: (واعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار؛ فإنه قد ثبت في الأحاديث المروية عن طريق جماعة من الصحابة أن من قال لأخيه يا كافر فقد باء بها أحدهما). السيل الجرار (٥٧٨/٤).

الرابعة: لا يمكن أن نستدل بهذه العبارة في تهوين الكفر الثابت بالنصوص وإيصاد باب الردة، فنحكم بإسلام من ثبت كفره بدليل، وهذا مسلك لا يقل خطورة ولا انحرافاً عن التسرع في التكفير، وكلا قصد طرفي الأمور ذميم، ومن هنا أفاض الفقهاء في بيان أنواع الشرك حتى يحذره العامة، ونصوا على دون ما خاض فيه د/جمعة من السجود للقبر والطواف به، قال ابن حجر الهيتمي في الزواجر: (بيان الشرك وذكر جملة من أنواعه لكثرة وقوعها في الناس على ألسنة العامة من غير أن يعلموا أنها كذلك، فإذا بان لهم بعضها فلعلهم أن يجتنبوها لئلا تحبط أعمالهم، ويخلدوا في أعظم العذاب وأشد العقاب، ومعرفة ذلك أمر مهم جداً) (٢٨/١).

الخامسة: العبارة واضحة في تكفير المعين، وهناك بون شاسع بينه وبين التكفير المطلق بالأفعال التي يكفر بها فاعلها، قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: (ومسألة تكفير المعين مسألة معروفة، إذا قال قولاً يكون القول به كفراً فيقال: من قال بهذا القول فهو كافر، ولكن الشخص المعين إذا قال ذلك لا يحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها) الدرر السنية (٢٤٤/٨).

قوله في ذكر مثال قولي للأصل: (فإذا سمعنا مسلماً موحداً يقول: أنا أعتقد أن المسيح يحيي الموتى، ونفس تلك المقالة قالها آخر مسيحي، فلا ينبغي أن نظن أن المسلم تنصر بهذه الكلمة؛ بل نحملها على المعنى اللائق بانتسابه إلى الإسلام).

هذا المثال الذي ساقه د/ جمعة ليس دقيقاً في تطبيقه على القاعدة التي ذكرها؛ لاشتماله على حق وباطل، فصدور هذه اللفظة من المسلم تصديقاً بكتاب الله لا يدخلها في دائرة ما يصدر عن المسلم من أفعال تقتضي الكفر، فلا حاجة لذكرها هنا ألبتة، ولو كان دقيقاً لذكر لنا ما هو من أفراد القاعدة التي أصلها؛ كسب الله تعالى، والاستعانة بغيره، ودعاء غيره، وغير ذلك مما سيظهر أنه مراده قريباً وأقول في هذا المقام: إنه لا يخفى على الدكتور أن طوائف من المتصوفة ينسب إحياء الموتى إلى الأولياء في الكرامات التي ينقلونها عنهم، وهو قدح في الربوبية، فماذا سيقول الدكتور - يا ترى- فيمن زعم أن ولياً يحيي الموتى؟ وعلى ماذا يحمل ما صدر عنه؟! سيقول لنا: إن المعنى اللائق بانتسابه بأن المؤثر هو الله، كما سيأتي في الأصل الثالث.

قوله في ذكر مثال فعلي للأصل: (لأن من ثبت له عقد الإسلام بيقين لم يزل عنه بالشك والاحتمال، ولذلك لما سجد معاذ بن جبل رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام - فيما رواه ابن ماجه وصححه ابن حبان - نهاه النبي عليه الصلاة والسلام عن ذلك، ولكنه لم يصف فعله هذا بالشرك أو الكفر، وبدهي أن معاذاً - وهو أعلم الأمة بالحلال والحرام - لم يكن يجهل أن السجود عبادة، وأن العبادة لا يجوز صرفها لغير الله، ولكن لما كان السجود يحتمل وجهاً آخر غير عبادة المسجود له؛ لم يجز حمله على العبادة إذا صدر من المسلم وتكفيره بحال).

أما الأمور التي حكم الشارع بكفر فاعلها فلا تدخل في الشك والاحتمال، والتمثيل هنا بسجود معاذ رضي الله عنه خارج عن القاعدة؛ لأنه سجود تحية - كما سيأتي- وإنما المثال المناسب للقاعدة: ما كان شركاً؛ كالسجود للقبر، وسيشير إليه الدكتور على استحياء لاحقاً.

فالأصل أن السجود عبادة لا يجوز صرفها لغير الله، (والعبادة الشرعية تتضمن غاية الذل لله تعالى مع غاية المحبة له) العبودية (ص: ٤٤).

والذين مشوا على قواعد المتكلمين من جهمية المرجئة - خلافاً لمرجئة الفقهاء والأشاعرة- زعموا أن هذا السجود ليس شركاً ما لم يتضمن الاعتقاد، وقد اتفقت جميع الشرائع على أن السجود لغير الله شرك، قال ابن القيم: (ومن خصائص الإلهية العبودية التي قامت على ساقين لا قوام لها بدونهما: غاية الحب، مع غاية الذل، هذا تمام العبودية، وتفاوت منازل الخلق بحسب تفاوتهم في هذين الأصلين، فمن أعطى حبه وذله وخضوعه لغير الله فقد شبهه به في خالص حقه، وهذا من المحال أن تأتي به شريعة من الشرائع... فمن خصائص الإلهية: السجود، فمن سجد لغيره فقد شبه المخلوق به) الجواب الكافي (ص: ١٨٣).

وقال أيضا في زاد المعاد بعد أن ذكر السجود للمشايخ والركوع للمتشبهين بالعلماء والقيام للجبابرة: (وقد نهى رسول الله عن هذه الأمور الثلاثة على التفصيل، فتعاطيها مخالفة صريحة له، فنهى عن السجود لغير الله، وقال: لا ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، وأنكر على معاذ لما سجد له، وقال: (مه!) وتحريم هذا معلوم من دينه ضرورة، وتجويز من جوزه لغير الله مراغمة لله ورسوله، وهو أبلغ أنواع العبودية، فإذا جوز هذا المشرك هذا النوع اليسير فقد جوز عبودية غير الله..... والمقصود أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطت عبودية الله سبحانه، وأشركت فيها من تعظمه من الخلق، فسجدت لغير الله وركعت له، وطافت لغير بيته.. وسوت من تعبده من المخلوقين برب العالمين، وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل، وهم الذين بربهم يعدلون، قال تعالى: ((تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ))[الشعراء:٩٧] ❖ ((إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ))[الشعراء:٩٨] (ص: ١٥٩).

هذا هو المقصود بأن السجود لغير الله يعد شركاً لأنه صرف عبادة لغير الله، وقد خلط د/ جمعة بينه وبين سجود التحية، ومعلوم أن سجود التحية كان سائغاً في الشرائع السابقة، ثم صار محرماً في شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام، وحديث معاذ الذي استشهد به يدل على ذلك؛ فإنه لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: (ما هذا يا معاذ؟ قال: أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك لك، فقال: لا تفعلوا، فلو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها)، وقد استوفى الشيخ الألباني طرق هذا الحديث عن جماعة من الصحابة في الإرواء (٥٥/٧).

ولو ساق د/ جمعة الحديث بتمامه ولم يقتصر على بعضه لاتضح قول معاذ: أن أولئك النصارى إنما كانوا يفعلونه مع ملوكهم وعظمائهم تحية.

وعن قيس بن سعد رضي الله عنه قال: أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله أحق أن يسجد له، قال: فأتيت النبي عليه الصلاة والسلام فقلت: إني أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحق أن نسجد لك، قال: (أرأيت إن مررت على قبري أكنت تسجد له؟ قال قلت: لا، قال فلا تفعلوا، لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن؛ لما جعل الله لهم عليهن من الحق)، رواه أبو داود.

وتأمل ذلك تجد أن المراد سجود التحية الذي كان يفعله من كان قبلنا، وهو إنما يكون للحي، ولا يستقيم أن يكون تحية للميت، كما أشار عليه الصلاة والسلام إليه، قال الطيبي: (أي: اسجد للحي الذي لا يموت، ولمن ملكه لا يزول، فإنك إنما تسجد لي الآن مهابة وإجلالاً، فإذا صرت رهين رمس امتنعت عنه)، عون المعبود. ومن خالف ذلك فسجد تحية لقبر النبي يكون عاصياً كما نقله د/جمعة عن الذهبي.

وقد قال الصحابة من فرط حبهم للنبي صلى الله عليه وسلم: ألا نسجد لك؟ كما ورد في حديث أبي هريرة في قصة الجمل، ولو أذن لهم لسجدوا له سجود إجلال وتوقير، لا سجود عبادة،

كما قد سجد إخوة يوسف عليهم السلام ليوسف، ونقله الدكتور عن الذهبي أيضاً.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ((وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا))[يوسف:١٠٠]: (وقد كان سائغاً في شرائعهم إذا سلموا على الكبير يسجدون له، ولم يزل هذا جائزاً من لدن آدم إلى شريعة عيسى عليه السلام، فحرم هذا في هذه الملة، وجعل السجود مختصاً بجناب الرب سبحانه وتعالى، هذا مضمون قول قتادة وغيره.. والغرض أن هذا كان جائزاً في شريعتهم، ولهذا خروا له سجداً) (٤١٩/٢).

ونقل الإجماع ابن عطية في تفسير هذه الآية على أنه سجود تحية فقال: (واختلف في هذا السجود، فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الوجه بالأرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سيرة تحيتهم للملوك في ذلك الزمان، وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على هيئة كان - فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم) (٣٧٧/٩).

وقد خالف هذا النهي جهلة المتصوفة كما ذكره القرطبي بقوله: (وهذا السجود المنهي عنه قد اتخذه جهال المتصوفة عادة في سماعهم، وعند دخولهم على مشايخهم واستغفارهم، فيرى الواحد منهم إذا أخذه الحال –بزعمه- يسجد للأقدام لجهله، سواء كان للقبلة أم غيرها جهالة منه، ضل سعيهم وخاب عملهم) التفسير (١/ ٢٩٤).

والتعظيم في حقه عليه الصلاة والسلام في اتباعه وطاعته، وتقديم ما يحبه على ما يحبه المسلم، وهو الذي كان عليه الصحابة رضي الله عنهم كما في حديث أنس قال: (لم يكن شخص أحب إليهم من رسول الله، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهيته لذلك) رواه الترمذي.

وهكذا يتضح لنا بجلاء أن ما ساقه من مثال فعلي خارج عن الأصل، وليس فيه ما يتطرق إلى تكفير فاعله، خلافاً للسجود للصنم أو نحوه كالقبر.

قوله: (والإخلال بهذا الأصل الأصيل هو مسلك الخوارج، حيث وضح ابن عمر رضي الله عنه أن هذا هو مدخل ضلالتهم فقال: انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين..).

قد عرفنا سابقا أن الأصل المشار إليه هنا مبني على قواعد المتكلمين، وأنه أصيل في كلام جهمية المرجئة، ويؤكد هنا د/جمعة أن الإخلال به مسلك الخوارج، ولم يوفق في تقريره؛ لأن مسلك الخوارج، هو تكفير المسلمين بالذنوب؛ كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر، وغيرها من الذنوب المفسقة، وهي ليست مناط حديثنا الذي ينصب حول ما يصدر من قول وفعل مكفرين، أما الكبائر التي ذكرت فإن مذهب أهل السنة عدم تكفير فاعلها؛ لأنها لا تخل بأصل الإيمان إلا إذا كان فاعلها مستحلاً، قال شيخ الإسلام: (ولهذا قال علماء السنة في وصفهم اعتقاد أهل السنة والجماعة أنهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة بذنب، إشارة إلى بدعة الخوارج المكفرة بمطلق الذنوب) الفتاوى (١٢/ ٤٧٤).

ومن هؤلاء العلماء الإمام البخاري، حيث عقد في كتاب الإيمان من صحيحه: (باب المعاصي من أمر الجاهلية لا يكفر صاحبها إلا بالشرك) فتح الباري (٨٤/١).

وقال في معتقده الذي نقله عنه اللالكائي: (ولم يكونوا يكفرون أحداً من أهل القبلة بالذنب؛ لقوله: ((إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ))[النساء:٤٨] شرح اعتقاد أهل السنة (١٧٥/١).

وانظر إلى فقه هذا الإمام وتحرير عبارته في إخراج أنواع الشرك من الذنوب التي لا يكفر فاعلها تجده يرد على طائفتين هما: الخوارج الذين يكفرون بمطلق الذنوب، كما يرد على غلاة المرجئة الذين لا يكفرون بأنواع الشرك من الأفعال، فلله دره من إمام وما أفقهه!

وأما مراد ابن عمر في مسلك الخوارج فقد فسره سعيد بن جبير فقال: (مما يتبع الحرورية من المتشابه قول الله تعالى: ((وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ))[المائدة:٤٤]، ويقرنون معها ((ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ))[الأنعام:١]، فإذا رأوا الإمام يحكم بغير الحق قالوا: قد كفر...) الشريعة للآجري (٣٤٢/١).

وأما نسبة الذين يحذرون الناس من أنواع الشرك إلى مسلك الخوارج فإنها شنشنة وجهت إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وننقل رده على بعض هؤلاء في قوله: (وأما المسألة الثالثة - وهي من أكبر تلبيسك الذي تلبس به على العوام- أن أهل العلم قالوا: لا يجوز تكفير المسلم بالذنب، وهذا حق، ولكن ليس هذا ما نحن فيه؛ وذلك أن الخوارج يكفرون من زنى أو سرق أو سفك الدم؛ بل بكل كبيرة إذا فعلها المسلم، وأما أهل السنة فمذهبهم أن المسلم لا يكفر إلا بالشرك، ونحن ما كفرنا الطواغيت وأتباعهم إلا بالشرك، وأنت رجل من أجهل الناس، تظن أن من صلى وادعى أنه مسلم لا يكفر.... أرأيت أصحاب رسول الله لما قاتلوا من منع الزكاة، فلما أرادوا التوبة قال أبو بكر: لا نقبل توبتكم حتى تشهدوا أن قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. أتظن أن أبا بكر وأصحابه لا يفهمون وأنت وأبوك الذين تفهمون؟! يا ويلك أيها الجاهل الجهل المركب إذا كنت تعتقد هذا) الرسائل الشخصية (ص: ٢٣٣).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن في رده على ابن جرجيس بما يتناسب مع المقام: (وأما قوله: إن الشيخ أحمد ابن تيمية وتلميذه ابن القيم لا يكفران أحداً من أهل القبلة، فيقال: لو عرف هذا من أهل القبلة في هذا الموضع ومن المراد بهذه العبارة لما أوردها هنا محتجاً بها على دعاء غير الله وعدم تكفير فاعله، ومن أعرض عن كلام أهل العلم ورأى أن من صلى وقال: لا إله إلا الله فهو من أهل القبلة، وإن ظهر منه الشرك والترك لدين الإسلام ما ظهر؛ فقد نادى على نفسه

بالجهالة والضلالة، وكشف عن حاصله من العلم بالدين وبهذه المقالة، وقد أنكر الإمام أحمد رحمه الله قول القائل: لا نكفر أهل الذنوب، وهذا يزعم أنه على مذهب الإمام أحمد، ومقصود من قالها إنما هو البراءة من مذهب الخوارج الذين يكفرون بمجرد الذنوب، وهذا وضع كلامهم في غير موضعه، وأزال بهجته؛ لأنه تأوله في أهل الشرك ودعاء الصالحين، فالتبس عليه الأمر، ولم يعرف مراد من قال من السلف، وهذا الفهم الفاسد مردود بكتاب الله وسنة رسوله، وبإجماع أهل العلم، وقد عقد الفقهاء من أرباب المذاهب باباً مستقلاً في هذه المسألة، وذكروا حكم المرتد من أهل القبلة، وقرروا من المكفرات أشياء كثيرة دون ما نحن فيه، وجزموا بأن العصمة بالتزام الإسلام ومبانيه ودعائمه، لا بمجرد القول والصلاة مع الإصرار على المناهي، وهذا يعرفه صغار الطلبة، وهو مذكور في المختصرات من كتب الحنابلة وغيرهم، فهذا لم يعرف ما عرفه صبيان المدارس والمكاتب، فالدعوى عريضة والعجز ظاهر) الدرر السنية (ص: ٢٩٠).

قوله: (ثانياً: هناك فارق كبير وبون شاسع بين الوسيلة والشرك، فالوسيلة مأمور بها شرعاً في قوله تعالى: ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ))[المائدة:٣٥]، فأثنى على من يتوسلون إليه في دعائهم فقال: ((أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا))[الإسراء:٥٧].

الوسيلة هي التقرب إلى الله بالطاعة والعمل الذي يحبه الله ويرضاه، فلا مدخل للتوسل بالأشخاص في هذا الحد قطعاً، قال ابن جرير في تفسير الآية الأولى التي ذكرها: ((وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ))[المائدة:٣٥] (يقول: واطلبوا القربة إليه بالعمل بما يرضيه، والوسيلة الفعيلة، من قول القائل: توسلت إلى فلان بكذا، بمعنى: تقربت إليه..) ثم روى بإسناده إلى أبي وائل في معنى (وابتغوا إليه الوسيلة) قال: (القربة في الأعمال، وذكر نحوه عن عطاء والسدي ومجاهد والحسن، وقال قتادة: (أي: تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه، وقال ابن زيد: المحبة تحببوا إليه) (١٠/٢٨٩).

قوله: (والوسيلة في اللغة: المنزلة والوصلة والقربة، فجماع معناها هو: التقرب إلى الله تعالى بكل ما شرعه سبحانه، ويدخل في ذلك تعظيم كل ما عظمه الله تعالى من الأمكنة والأزمنة والأشخاص والأحوال، فيسعى المسلم مثلاً للصلاة في المسجد الحرام، والدعاء عند قبر المصطفى والملتزم؛ تعظيماً لما عظمه الله سبحانه وتعالى من الأماكن، ويتحرى قيام ليلة القدر، والدعاء في ساعة الإجابة يوم الجمعة، وفي ثلث الليل الأخير؛ تعظيماً لما عظمه الله من الأزمنة، ويتقرب إلى الله تعالى بحب الأنبياء والصالحين تعظيماً لما عظمه الله من الأشخاص، ويتحرى الدعاء حال السفر، وعند نزول الغيث وغير ذلك تعظيماً لما عظمه الله من الأحوال).

معنى الوسيلة إذاً: التقرب بالعمل الذي يرضيه سبحانه، وهو تفسير واضح؛ لكن د/ جمعة أفرد تعظيم ما عظمه الله بالذكر لكي يصل إلى ما يتلخص عنده من معنى الوسيلة وهي: تعظيم بالله؛ ليتوصل إلى ما سيدخله في هذا الحد من السجود للقبر والطواف به؛ لأنه تعظيم للمقبور.

والوسيلة في كل ما تم التمثيل به في هذه الجملة إنما هو بالعمل الصالح؛ كالصلاة في المسجد الحرام، وقيام ليلة القدر، والدعاء في ساعة الجمعة، وكذا حال السفر، وعند نزول الغيث، وحب الأنبياء والصالحين، وأما الدعاء عند قبر المصطفى فيرده ما ورد عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، فقال: ألا أحدثك حديثاً سمعته من أبي عن جدي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تتخذوا قبري عيداً..) أخرجه أبو يعلى. قال الإمام مالك في المبسوط: (لا أرى أن يقف عند قبر النبي صلى الله عليه وسلم يدعو، ولكن يسلم ويمضي، ولهذا والله أعلم حرفت الحجرة وثلثت لما بنيت، فلم يجعل حائطها الشمالي على سمت القبلة، ولا جعل جدارها مربعاً). اقتضاء الصراط المستقيم (ص: ٣٦٥).

وينبغي الإشارة هنا إلى أن إدخاله التعظيم يجب أن يكون مقيداً بما عظمه الله؛ لأن بعض العوام يخلط في هذا المقام، ويعظم ما لم يرد فيه نص، وهو من قديم، كما قال ابن عمر رضي الله عنه: (رجعنا العام المقبل فما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها كانت رحمة من الله) رواه البخاري، وقال ابن حجر: (وسيأتي في المغازي موافقة المسيب بن حزن لابن عمر على خفاء الشجرة، وبيان الحكمة في ذلك، وهو ألا يحصل بها افتتان لما وقع تحتها من الخير، فلو بقيت لما أمن من تعظيم بعض الجهال لها، حتى ربما أفضى بهم إلى اعتقاد أن لها قوة نفع أو ضر، كما نراه اليوم مشاهداً فيما هو دونها، وإلى ذلك أشار ابن عمر بقوله: (كانت رحمة من الله) أي: كان خفاؤها عليهم بعد ذلك رحمة من الله تعالى). فتح الباري (٦/١١٧).

وموافقة المسيب المشار إليها عن طارق بن عبد الرحمن قال: انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون، قلت: ما هذا المسجد؟ قالوا: هذه الشجرة حيث بايع رسول الله بيعة الرضوان، فأتيت سعيد بن المسيب فأخبرته، فقال: حدثني أبي أنه كان فيمن بايع رسول الله تحت الشجرة، قال: فلما خرجنا من العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها، فقال سعيد: إن أصحاب محمد لم يعلموها وعلمتموها أنتم فأنتم أعلم!! قال ابن حجر: (قد قدمت الحكمة في إخفائها.. ثم وجدت عند ابن سعد بإسناد صحيح عن نافع أن عمر بلغه أن قوماً يأتون الشجرة فيصلون عندها فتوعدهم، ثم أمر بقطعها فقطعت) فتح الباري (٧/٤٤٧).

قوله: (أما الشرك فهو صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله على الوجه الذي لا ينبغي إلا لله، حتى لو كان ذلك بغرض

التقرب إلى الله، كما قال تعالى: ((وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))[الزمر:٣]، وإنما قلنا: على الوجه الذي لا ينبغي إلا لله تعالى؛ لإخراج كل ما خالف العبادة في مسماها وإن وافقها في ظاهر اسمها..).

هذا التعريف للشرك سيعبر عنه بتعريف آخر هو: التعظيم مع الله أو من دون الله، وأما قوله: على الوجه الذي لا ينبغي إلا لله؛ فإن هذا قيد لا طائل من ذكره إذا كان حد العبادة جامع مانع، فما وافقها في الاسم دون المسمى لا يشمله التعريف، ولا فائدة من الاستكثار من ذكر الشواهد كما فعله الدكتور، ويبعد أن يكون مراده حمل أفعال المسلم في مسمى العبادة كدعاء غير الله على ظاهر الاسم في الدعاء.

قوله: (وبذلك يتبين لنا فصل ما بين الوسيلة والشرك؛ فالوسيلة نعظم ما عظمه الله، أي: تعظيم بالله، والتعظيم بالله تعظيم لله، كما قال عز وجل: ((ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ))[الحج:٣٢]، وأما الشرك فهو تعظيم مع الله، أو تعظيم من دون الله، ولذلك كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام إيماناً وتوحيداً، وكان سجود المشركين للأوثان كفراً وشركاً، مع كون المسجود له في الحالتين مخلوقاً، ولكن لما كان سجود الملائكة لآدم عليه السلام تعظيماً لما عظمه الله كما أمر الله؛ كان وسيلة مشروعة يستحق فاعلها الثواب، ولما كان سجود المشركين للأصنام تعظيماً كتعظيم الله؛ كان شركاً مذموماً يستحق فاعله العقاب).

أما سجود الملائكة لآدم عليه السلام فإنه أمر من الله لهم، وإكراماً لآدم، قال ابن جرير في تفسيره: (كان سجود الملائكة لآدم تكرمة لآدم وطاعة لله، لا عبادة لآدم، ثم روى بإسناده عن قتادة أنه قال: فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته) (٥١٢/١)، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (أما السجود فشريعة من الشرائع، إذ أمرنا الله أن نسجد له، ولو أمرنا أن نسجد لأحد من خلقه غيره لسجدنا لذلك الغير طاعة لله عز وجل، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة له وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشريف وتكريم وتعظيم، وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام) الفتاوى (٤٦٠/٤).

وقال محمد رشيد رضا عند تفسير قوله تعالى: ((وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ))[البقرة:٣٤]: (وهو سجود لا نعرف صفته، ولكن أصول الدين تعلمنا أنه ليس سجود عبادة؛ إذ لا يعبد إلا الله تعالى، والسجود في اللغة التطامن والخضوع والانقياد، وأعظم مظاهره الخرور نحو الأرض للأذقان، ووضع الجبهة على التراب، وكان عند القدماء من تحية الناس للملوك والعظماء، ومنه سجود يعقوب وأولاده ليوسف عليهم السلام) المنار (٢٦٥/١).

فالسجود لآدم تكريم وتعظيم كما سبق، وهو مأمور به، وهو تعظيم مخصوص، فماذا يريد د/ جمعة من إيراده هذا المثال؟ هل ليقاس عليه تعظيم غيره فيدخل فيه تعظيم ما عظمه الله كتعظيم الأشخاص؟ فيقال: هل هو تعظيم مخصوص أم مطلق؟ أما تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم فإنه معلوم وواجب، وهو مما لا يجهله أحد، وتعظيمه عليه الصلاة والسلم يكون باتباع شرعه، وتصديقه فيما أخبر، وفعل ما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، فهو تعظيم مخصوص؛ ولذلك نهانا أن نتجاوز المنزلة التي أنزله الله فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح)، وأما التعظيم مطلقاً فلم يقل به أحد؛ فإنه يدخل فيه كل تعظيم، فهل توجب السجود له ودعاءه من دون الله والتوكل عليه وغير ذلك مما حذر منه عليه الصلاة والسلام؟!

فعلم مما سبق معنى سجود الملائكة لآدم، وأما سجود المشركين للأصنام فإنه تعظيم مع الله أو من دونه، ولا إشكال فيه، بقي معنا السجود للقبر الذي هو مناط المسألة، فمقتضى كلام الشيخ أنه وسيلة إلى تعظيم الصالحين؛ فيكون ذلك جائزاً، وهذا الكلام مبني على أمرين: (أحدهما: أن كل تعظيم لما عظمه الله فهو وسيلة، والثاني: أن السجود تعظيم لقبور الصالحين، فيكون السجود للقبر وسيلة، والنتيجة باطلة؛ لأن المقدمة الثانية باطلة).

قال شيخ الإسلام في إشارة إلى بعض الأمكنة الوثنية من قبور ومشاهد: (فهذه البقاع التي يعتقد لها خصيصة كائنة ما كانت ليس من الإسلام تعظيمها بأي نوع من أنواع التعظيم؛ فإن تعظيم مكان لم يعظمه الشرع شر من تعظيم زمان لم يعظمه، فإن تعظيم الأجسام عندها بالعبادة أقرب إلى عبادة الأوثان من تعظيم الزمان.....وما أشبه هذه الأمكنة بمسجد الضرار الذي ((أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ))[التوبة:١٠٩]؛ فإن ذلك المسجد لما بني ((ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ))[التوبة:١٠٧] نهى الله نبيه صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فيه، وأمر بهدمه، وهذه المشاهد الباطلة إنما وضعت مضاهاة لبيوت الله، وتعظيماً لما لم يعظمه الله، وعكوفاً على أشياء لا تنفع ولا تضر، وصداً عن سبيل الله، وهي عبادته وحده لا شريك له بما شرعه الله على لسان رسوله واتخاذها عيداً..) اقتضاء الصراط (ص: ٣١٧).

قوله: (وعلى هذا الأصل في الفرق بين الوسيلة والشرك بنى جماعة من أهل العلم قولهم بجواز الحلف بما هو معظم في الشرع؛ كالنبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام، والكعبة، ومنهم الإمام أحمد رحمه الله تعالى في أحد قوليه، حيث أجاز الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم؛ معللاً ذلك بأنه صلى الله عليه وسلم أحد ركني الشهادة التي لا تتم إلا به، وذلك أنه لا وجه فيه للمضاهاة بالله تعالى؛ بل تعظيمه بتعظيم الله له، وحمل هؤلاء أحاديث النهي عن الحلف بغير الله على ما كان متضمناً للمضاهاة بالله..)، وساق عن ابن المنذر مأخذ من قال بهذا القول.

لقد ورد الزجر والتغليظ في النهي بالحلف بغير الله بلفظ الشرك والكفر، كما ورد عن عمر رضي الله عنه قال: حدثت

قوماً حديثاً فقلت: لا وأبي، فقال رجل من خلفي: لا تحلفوا بآبائكم، فالتفت فإذا رسول الله يقول: (لو أن أحدكم حلف بالمسيح هلك، والمسيح خير من آبائكم)، قال الحافظ: وهذا مرسل قوي يتقوى بشواهده، وقد أخرج الترمذي وجهاً آخر عن ابن عمر أنه سمع رجلاً يقول: لا والكعبة، فقال: لا تحلف بغير الله، إني سمعت رسول الله يقول: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) قال الترمذي: حسن، وصححه الحاكم.

وقيد الحافظ ابن حجر الحلف بغير الله الذي حكى د/جمعة فيه الخلاف بعبارة دقيقة أوضح من تعبير المضاهاة بالله فقال: (وأما إذا حلف بغير الله لاعتقاده تعظيم المحلوف به بما يليق به من التعظيم فلا يكفر بذلك، ولا تنعقد يمينه)، فقوله: (بما يليق به من التعظيم) دل على خروج ما لم يكن كذلك، قال ابن حج: (واستثنى بعض الحنابلة من ذلك الحلف بنبينا محمد فقال: تنعقد به اليمين، وتجب الكفارة بالحنث، فاعتل بكونه أحد ركني الشهادة التي لا تتم إلا به).

وأوضحه شيخ الإسلام فقال: (فإذا كان النبي قد نهى عن الصلاة التي تتضمن الدعاء لله وحده خالصاً عند القبور لئلا يفضي ذلك إلى نوع من الشرك بربهم، فكيف إذا وجد ما هو عين الشرك من الرغبة إليهم؛ سواء طلب منهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، أو طلب منهم أن يطلبوا ذلك من الله؛ بل لو أقسم على الله ببعض خلقه من الأنبياء والملائكة وغيرهم لنهي عن ذلك ولو لم يكن عند قبره، كما لا يقسم بمخلوق مطلقاً، وهذا منهي عنه غير منعقد باتفاق الأئمة، وهل هو نهي تحريم أو تنزيه؟ على قولين، أصحهما أنه نهي تحريم، ولم يتنازع العلماء إلا فيمن حلف بالنبي خاصة، فإن فيه قولين في مذهب أحمد وبعض أصحابه.. ولكن القول الذي عليه جمهور الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة وغيرهم: أنه لا ينعقد اليمين بمخلوق ألبتة، ولا يقسم بمخلوق ألبتة، وهذا هو الصواب) اقتضاء الصراط (ص: ٤٠٧).

وأما قول ابن المنذر الذي ساقه فقد تعقبه ابن عبد البر بأن ذكر الأشياء وإن كانت بصورة الحلف فليست يميناً في الحقيقة، وإنما خرج على الاتساع، ولا يمين في الحقيقة إلا بالله، وكذا المهلب بقوله: (والحلف بالمخلوقات في حكم الحلف بالله). فتح الباري (٥٣٥/١١).

فالحلف على جهة التعظيم للمقبور - بما لا يليق به كما قيده ابن حجر- هو شرك، وقد وجد من يبادر بالحلف بالله، فإذا طلب منه الحلف بالولي امتنع خوفاً من الحنث، وهو الشرك الذي أطلق المقريزي في تجريد التوحيد فقال: (ومن الشرك بالله المباين لقوله تعالى: ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ))[الفاتحة:٥]: الشرك به في الحلف بغيره، كما رواه الإمام أحمد وأبو داود عنه صلى الله عليه وسلم: (من حلف بغير الله فقد أشرك)، صححه الحاكم وابن حبان، وروى ابن حبان عن سعد بن عبيدة قال: كنت عند ابن عمر فحلف رجل بالكعبة، فقال ابن عمر رضي الله عنه: ويحك! لا تفعل؛ فإني سمعت رسول الله يقول: (من حلف بغير الله فقد أشرك). (ص: ٢٢).

ومثل الحلف بغير الله الإقسام على الله بالمخلوق، قال إسحاق بن عبد الرحمن بن حسن في هذه المسألة: (وإذا تقرر هذا فقد عرفت - سلمك الله- كلام الناس في مسألة سؤال الله بالمخلوق والإقسام على الله به، وقد ذاكرتك فيها بأن الذي نعتقده أنا لا نكفر بها أحداً؛ بل نقول: هي بدعة شنيعة نهى عنها السلف). الدرر السنية (١١٣/٢).

قوله: (فإذا ما حصل خلاف بعد ذلك في بعض أنواع الوسيلة؛ كالتوسل بالصالحين، والدعاء عند قبورهم مثلاً، أو حصل خطأ فيها من بعض المسلمين فيما لم يشرع كونه وسيلة كالسجود للقبر، أو الطواف به؛ فإنا لا يجوز أن ننقل هذا الخطأ أو ذلك الخلاف من دائرة الوسيلة إلى دائرة الشرك والكفر؛ لأننا نكون بذلك قد خلطنا بين الأمور، وجعلنا التعظيم بالله كالتعظيم مع الله).

بهذا التقرير الأخير ينقض ما كان قد نسجه من تعريف الوسيلة والشرك، وما كان ذاك إلا توطئة للوصول إلى هذا الهدف.

أما التوسل بالصالحين - أمواتاً كما هو مراده هنا - فيحتمل أمرين:

الأول: اتخاذهم وسائط يدعوهم ويرجوهم ويستغيث بهم من دون الله ليقربوه إلى الله زلفى هو الشرك بعينه، والثاني: سؤال الله تعالى بجاههم ومنزلتهم عنده يعد بدعة.

قال الشنقيطي: (التحقيق في معنى الوسيلة هو ما ذهب إليه عامة العلماء من أنها: التقرب إلى الله تعالى بالإخلاص له في العبادة على وفق ما جاء به الرسول، وتفسير ابن عباس داخل في هذا؛ لأن دعاء الله والابتهال إليه في طلب الحوائج من أعظم أنواع عبادته التي هي الوسيلة إلى نيل رضاه ورحمته، وبهذا التحقيق تعلم أن ما يزعمه كثير من ملاحدة أتباع الجهال المدعين للتصوف من أن المراد بالوسيلة في الآية الشيخ الذي يكون له واسطة بينه وبين ربه، أنه تخبط في الجهل والعمى، وضلال مبين، وتلاعب بكتاب الله تعالى، واتخاذ الوسائط من دون الله من أصول كفر الكفار، كما صرح به تعالى في قوله عنهم: ((مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))[الزمر:٣]، وقوله: ((وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ))[يونس:١٨] ، فيجب على كل مكلف أن يعلم أن الطريق الموصلة إلى رضا الله وجنته ورحمته هي اتباع رسوله، ومن حاد عن ذلك فقد ضل سواء السبيل). أضواء البيان (٩٨/٢).

وقال الألوسي: (إن لفظ التوسل صار مشتركاً على ما يقرب إلى الله من الأعمال التي يحبها الرب ويرضاها، ويطلق على التوسل بذوات الصالحين ودعائهم واستغفارهم، ويطلق في عرف عباد القبور على التوجه إلى الصالحين ودعائهم مع الله في

الحاجات والملمات). فتح المنان (ص: ٤٠).

الفرق بين التوسل واتخاذ الوسائط:

نقل شيخ الإسلام الإجماع على أن الثاني يعد شركاً فقال: (فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسأل غفران الذنوب، وهداية القلوب، وتفريج الكروب، وسد الفاقات؛ فهو كافر بإجماع المسلمين) (١/١٢٤).

وقال المقدسي في الفروع: (إن مما يكون كفراً أن يجعل بينه وبين الله تعالى وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، قالوا: إجماعاً) (٦/١٦٥)، وقد نقل هذا ابن حجر عنه في كتاب الإعلام وأقره بهامش الزواجر (١٥٣).

قال رشيد رضا في التفسير: (ومن جعل بينه وبين الله واسطة في العبادة كالدعاء فقد عبد هذه الواسطة من دون الله؛ لأن هذه الواسطة تنافي الإخلاص له وحده، ومتى انتفى الإخلاص انتفت العبادة، ولذلك قال تعالى: ((فَاعْبُدِ اللَّـهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ))[الزمر:٢] ❖ ((أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى))[الزمر:٣] ، فلم يمنعهم توسطهم بالأولياء إليه تعالى أنهم اتخذوهم من دونه) (٣/٣٤٧).

وأما الدعاء عند قبورهم فلم يثبت عن السلف فعله، قال شيخ الإسلام: (الوجه الثالث في كراهة قصد القبور للدعاء: أن السلف رضي الله عنهم كرهوا ذلك، متأولين في ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (لا تتخذوا قبري عيداً)، كما ذكرنا ذلك عن علي بن الحسين والحسن بن الحسن ابن عمه، وهما أفضل أهل البيت من التابعين... وما أحفظ لا عن صحابي ولا عن تابعي ولا عن إمام معروف أنه استحب قصد شيء من القبور للدعاء عنده، ولا روى أحد في ذلك شيئاً؛ لا عن النبي ولا عن أحد من الأئمة المعروفين، وقد صنف الناس في الدعاء وأوقاته وأمكنته، وذكروا في ذلك الآثار، فما ذكر أحد منهم في فضل الدعاء عند شيء من القبور حرفاً واحداً فيما أعلم). اقتضاء الصراط (ص: ٣٦٨).

وأما قوله: (السجود للقبر والطواف به من تعظيم الصالحين وعليه فهو وسيلة، فهو بيت القصيد من كل هذا التقرير، فلا بد من بيان أن هذا هو من تعظيم المقبور، وهو الشرك بعينه، قال ابن حجر: (وما تعظيم الصالحين إلا منشأ عبادتهم كما كان ذلك في قوم نوح.. قال: وقصة الصالحين كانت مبتدأ عبادة قوم نوح هذه الأصنام، ثم تبعهم من بعدهم على ذلك). فتح الباري (٨/٦٦٩).

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، فلولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً). رواه الشيخان.

وقال الإمام النووي: (قال العلماء: إنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ قبره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأمم الخالية). شرح مسلم (٥/١٣).

وقال ابن القيم: (ولعمر الله من هذا الباب بعينه دخل عباد يغوث ويعوق ونسر، ومنه دخل البلاء على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة، فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقهم، وهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها من العبودية، وسلب خصائص الإلهية عنهم، وهذا غاية تعظيمهم وطاعتهم، وأما المشركون فعصوا أمرهم، وتنقصوهم في صورة التعظيم لهم)، وقال أيضاً: (وبالجملة فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن الرسول مقاصده؛ جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة منه باللعن بصيغته ليس لأجل النجاسة؛ بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة بمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن هذا وأمثاله من النبي صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريداً له وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره وارتكاباً لنهيه، وغرهم الشيطان فقال: هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد تعظيماً لهم وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد ومن أعدائهم أبعد). إغاثة اللهفان.

قوله: (ثالثاً: أن هناك فارقاً أيضاً بين كون الشيء سبباً، واعتقاده خالقاً ومؤثراً بنفسه تماماً، كما مثلنا في الأصل الأول من اعتقاد المسلم أن المسيح عليه السلام سبباً في الخلق بإذن الله، في مقابلة اعتقاد النصراني أنه يفعل ذلك بنفسه، فإذا رأينا مسلماً يطلب أو يسأل أو يستعين أو يرجو نفعاً أو ضراً من غير الله فإنه يجب علينا قطعاً أن نحمل ما يصدر منه على ابتغاء السببية، لا على التأثير والخلق؛ لما نعلم من اعتقاد كل مسلم أن النفع والضر الذاتيين إنما هما بيد الله وحده، وأن هناك من المخلوقات ما ينفع ويضر بإذن الله، ويبقى الكلام بعد ذلك في صحة كون هذا المخلوق أو ذاك سبباً من عدمه).

وعلى هذه الجملة ثلاث ملاحظات:

الأولى: أن هناك فارقاً أيضاً بين الإقرار بأن الله هو الخالق والفاعل وحده الذي أقر به المشركون، وبين توحيد الألوهية وهو التوحيد الخالص الذي هو الفرقان بين الموحدين والمشركين، فالشرك الذي يضاد التوحيد الخالص ليس محصوراً في شرك الربوبية، كمن يعتقد أن الخلق لغير الله، أو أن المؤثر هو الله وحده، وقد ذكرت الآيات أن المشركين لا يعتقدون ذلك في أصنامهم، قال تعالى: ((قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ))[المؤمنون:٨٤] ❖ ((سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))[المؤمنون:٨٥] ❖ ((قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ))[المؤمنون:٨٦] ❖ ((سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ))[المؤمنون:٨٥] ❖ ((قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ

وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[المؤمنون:٨٨] ❖ ﴿ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾[المؤمنون:٨٩] ، فهؤلاء كانوا مقرين بأنه لا ينفع ولا يضر إلا الله، وأن معبوداتهم لا تخلق.

الثانية: كون الوسائط عنده مجرد أسباب والفاعل في الحقيقة هو الله لا يبرر الاستغاثة بالأحياء فيما لا يقدر عليه إلا الله، وكذا الأموات من أصحاب القبور، ولا يغير من حقيقة الشرك شيئاً؛ سواء عبر بالأسباب أو الوسائط أو الوسائل.

قال الألوسي: (وما أورد على الجواب من أن للمستغاث بهم قدرة كسبية أو تسببية، فتنسب الإغاثة إليهم بهذا المعنى، سواء كانوا أحياءً أم أمواتاً، وسواء كانت الاستغاثة بما يقدر عليه المستغاث به أم لا، بأن كون العبد له قدرة كسبية لا يخرج بها عن مشيئة رب البرية، لا يستغاث به فيما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يستغاث به ولا يتوكل عليه ولا يلتجأ في ذلك إليه، فلا يقال لأحد حي أو ميت قريب أو بعيد: ارزقني، أو أمتني، أو أحي ميتي، أو اشف مريضي.. إلى غير ذلك مما هو من الأفعال الخاصة بالواحد الفرد الصمد، بل يقال لمن له قدرة سببية قد جرت العادة بحصولها ممن أهله الله لها: أعني في حمل متاعي، أو غير ذلك، والقرآن ناطق بحظر دعاء كل أحد لا من الأحياء ولا من الأموات؛ سواء كانوا أنبياء أو صالحين أو غيرهم، وسواء كان الدعاء بلفظ الاستغاثة أو بغيرها، فإن الأمور غير المقدورة للعباد لا تطلب إلا من خالق القدر، ومنشئ البشر، والدعاء عبادة وهي مختصة به سبحانه). فتح المنان (ص: ٣٤٧).

وتأمل تمثيل د/جمعة بما ورد في الأصل الأول من اعتقاد المسلم أن المسيح عليه السلام سبب في الخلق بإذن الله في مقابلة اعتقاد النصراني أنه يفعل ذلك بنفسه، تجد لازماً عجيباً التزم به في حين يحيد عنه الأكثرون؛ لأنه من دائرة الربوبية التي يقرون بها، ونزيد ذلك توضيحاً بقولنا: إن من يجوز دعاء غير الله ويستغيث بالأموات لأنهم أسباب فقط، يحتج عليه أيضاً بأفعال الربوبية، فيقال له: ويلزمك أن تقول أيضاً فيمن قال للميت أو الحي: أحي ميتي أنه جائز؛ لأنهم أسباب، والمؤثر هو الله، والعجيب أن د/جمعة قد بادر بالالتزام به متطوعاً في تمثيله السابق، ولكن بما هو ثابت في النصوص، ونحن نسأله عن مسلك جهلة الصوفية في نسبة ذلك للأولياء ليتضح التمثيل تماماً، ومثله التصرف في الكون، وغير ذلك من الأمور التي هي من خصائص الربوبية.

الثالثة: التصريح بالشهادة في أنه يعلم من اعتقاد كل مسلم أن النفع والضر الذاتيين إنما هو بيد الله وحده، وأن هناك من المخلوقات ما ينفع ويضر بإذن الله؛ فيه مجازفة ومبالغة ومخالفة لتصرفات كثير من القبوريين الذين يعتقدون ذلك فيمن يدعونه، كما ذكر ذلك الشوكاني فقال: (وإذا علمت هذا فالرزية كل الرزية، والبلية كل البلية أمر غير ما ذكرنا من التوسل المجرد والتشفع بمن له الشفاعة، وذلك ما صار يعتقده كثير من العوام وبعض الخواص في أهل القبور، وفي المعروفين بالصلاح من الأحياء من أنهم يقدرون على ما لا يقدر عليه إلا الله جل جلاله، ويفعلون ما لا يفعله إلا الله عز وجل، حتى نطقت ألسنتهم بما انطوت عليه قلوبهم، فصاروا يدعونهم تارة مع الله، وتارة استقلالاً، ويصرخون بأسمائهم، ويعظمونهم تعظيم من يملك النفع والضر، ويخضعون لهم خضوعاً زائداً على وقوفهم بين يدي ربهم في الصلاة، والدعاء هذا إن لم يكن شركاً فلا ندري ما هو الشرك! وإذا لم يكن كفراً فليس في الدنيا كفر!). الدر النضيد (ص: ٧).

وذكر ذلك أيضاً الصنعاني بقوله: (فإن قلتَ: القبوريون وغيرهم يقولون: نحن لا نعبد هؤلاء، ولا نعبد إلا الله وحده، ولا نصلي لهم ولا نصوم ولا نحج، قلتُ: هذا جهل بمعنى العبادة، فإنها ليست منحصرة فيما ذكرت؛ بل رأسها وأساسها الاعتقاد، وقد حصل في قلوبهم ذلك بما يسمونه معتقداً، ويصنعون له ما سمعته مما تفرع عن الاعتقاد من دعائهم وندائهم والتوسل بهم والاستغاثة والاستعانة والحلف والنذر وغير ذلك، وقد ذكر العلماء أن من تزيا بزي الكفار صار كافراً، ومن تكلم بكلمة الكفر صار كافراً، فكيف بمن بلغ الرتبة اعتقاداً، وقولاً، وفعلاً). تطهير الاعتقاد (ص: ٤٦).

فلا يسلم له بلفظ العموم وإطلاق الكلام على عواهنه؛ فإن جهلة المتصوفة يخالفونه في ذلك، ويعتقدون أن للأولياء تصرفاً في الكون، وأنهم يفعلون ما يريدون، ويحيون ويميتون وكذا، ولو قرأ طبقات الشعراني لاتضح له هذا الكلام؛ حيث أورد في طبقات الأولياء وتراجمهم أن منهم من صرفه الله في الكون (ص: ٥٠٦)، ومنهم من له التصرف في العالم (ص: ٢٥٧)، ومنهم إذا مات انقطع تصرفه في الكون من الإمداد (ص: ٥٢٥)، ومنهم أربعة يتصرفون في قبورهم (ص: ٢٥٩ ـ ٥٣٣)، ومنهم من يتحمل البلاء بأكلة (ص: ٣٦٠)، ومنهم رحى الوجود بيده (ص: ٥٠٨)، ومنهم أمان مصر (ص: ٤٩٩)، ... إلى غير ذلك من مخاريق الصوفية التي تطفح بها كتبهم.

قوله: (وإذا تقررت هذه الأصول الثلاثة فإنه يجب علينا استحضارها في الكلام على حكم الطواف بالقبور، فإذا علمنا أننا نتكلم في أفعال تصدر من مسلمين، وأن المسلمين يزورون هذه الأضرحة والقبور اعتقاداً منهم بصلاح أهلها، وقربهم إلى الله، وأن زيارة القبور عمل صالح يتقرب ويتوسل به إلى الله تعالى، وأن الكلام إنما هو في جواز بعض ما يصدر عن هؤلاء المسلمين من عدمه، وأن في بعض أقوالهم خلافاً بين العلماء، وفي بعضها خطأ محض لا خلاف فيه، إذا علمنا هذا كله فإنه يتبين لنا بجلاء أنه لا مدخل للشرك ولا للكفر في الحكم على أفعال هؤلاء المسلمين في قليل ولا كثير، أو من قبيل أو دبير؛ بل ما ثم إلا الخلاف في بعض الوسائل، والخطأ المحض في بعضها الآخر من غير أن يكون شيء من ذلك تكفيراً لمن ثبت إسلامه بيقين).

إذا تقررت هذه الثلاثة الأصول فلينعم القبوريون بأنه ليس هناك شرك، وليقروا عيناً في استغاثتهم بغير الله، والسجود للقبر، والطواف به، وكل أصل منها كاف لتبرير هذه الأفعال

والأقوال التي يكفر صاحبها، وأما بمجموعها فهي مصادمة للنصوص، وميل عن القسط الذي أمر الله الناس أن يقوموا به، والذي من أجله أنزلت الكتب وأرسلت الرسل، قال تعالى: ((لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ))[الحديد:٢٥].

وما أشار إليه من زيارة الأضرحة لا تخلو من أحد هذه الأمور، فمن يزورها لتذكره الآخرة والدعاء لهم فهي الزيارة الشرعية، ومن يزورهم ويسأل الله بجاههم فهي الزيارة البدعية، ومن يزورهم ويدعو بهم ويتخذهم وسائط اعتقاداً بصلاح أهلها وقربهم إلى الله فهو شرك في الإلهية، ومن يزورهم ويدعوهم أنفسهم لاعتقاد أن لهم تصرفاً فهؤلاء هم المشركون في الربوبية.

وأما د/جمعة فعنده أن أفعال وأقوال الزائرين للأضرحة اعتقاداً بصلاح أهلها وقربهم إلى الله ثلاثة أقسام ليس فيها شرك، وهي: ما هو جائز، والثاني: الذي فيه خلاف، والثالث: ما هو خطأ محض، ومن كلامه السابق فإن الدعاء لغير الله والاستعانة والسجود للقبر والطواف به لا يخرج عن أحد هذه الأقسام الثلاثة، وبهذا فقد أوصد باب الشرك والحكم بالكفر بحجة أن هؤلاء مسلمون.

وحجة كون من يقارف الشرك ولا نحكم بأن فعله أو قوله شرك لكون إسلامه ثبت بيقين عارية عن الصحة، وتحكم بلا دليل؛ لأن الأسماء لا تغير من الحقائق شيئاً، فعياذاً بالله من أن ينسلخ القلب من التوحيد والإسلام وهو يظن أنه مسلم موحد!

قال الصنعاني: (والنذر بالمال على الميت ونحوه، والنحر على قبره، والتوسل به، وطلب الحاجات منه؛ هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً، وفعله القبوريون لما يسمونه ولياً وقبراً ومشهداً، والأسماء لا أثر لها في تغيير المعاني.... وكذلك تسمية القبر مشهداً ومن يعتقدون فيه ولياً لا يخرجه عن اسم الصنم والوثن؛ إذ هم معاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحجاج لبيت الله الحرام، ويستلمونهم استلامهم لأركان البيت، ويخاطبون الميت بالكلمات الكفرية من قولهم: على الله وعليك، ويهتفون بأسمائهم عند الشدائد ونحوها..). تطهير الاعتقاد (ص: ٣٩).

وقال محمد رشيد رضا في تعليقه على صيانة الإنسان: (ومن عجائب جهل دحلان وأمثاله: أنهم يظنون أن ما بينه القرآن من بطلان شرك المشركين خاص بهم لذواتهم، وليس بحجة على من يفعل مثل فعلهم، كأن من ولد مسلماً يباح له الشرك لجنسيته الإسلامية وإن أشرك بالله في كل ما عده كتاب الله شركاً، وعلى هذا لا يتصور وقوع الردة في الإسلام؛ لأن من سمي مسلماً يجب أن يسمى كفره إسلاماً، أو يعد مباحاً أو حراماً على الأقل، وقد يعدونه مشروعاً بالتأويل) (ص: ٤٨٧).

قوله: (وباستعراض أقوال أهل العلم في حكم الطواف بالقبور نراها دائرة بين الحرمة والكراهة، أي: منهم من يرى في الطواف وسيلة محرمة يأثم فاعلها، ومنهم من يرى أنه يستحب للمسلم تركه ولكنه إن فعله فلا عقاب عليه، والقول بالكراهة هو المعتمد عند السادة الحنابلة، كما في كشف القناع لخاتمة محققيهم العلامة البهوتي، والقول بالتحريم هو مذهب جمهور العلماء، وهو الذي عليه الفتوى).

إن استعراض أقوال العلماء في الطواف بالقبور إنما منهي عنه لما مناطه التعظيم الذي يجعله مشابهاً للكعبة كما سبق، وأما إذا كان التعظيم للقبر أو صاحبه فذاك كفر، فالتشبه هنا مكروه، وأشبه أن يكون كراهة تحريم منه بكراهة التنزيه.

ومن ذلك ما ورد عن شيخ الإسلام: (والرجل الذي طلب من والده الحج فأمره أن يطوف بنفس الأب فقال: طف ببيت ما فارقه الله طرفة عين قط؛ فهذا كفر بإجماع المسلمين، فإن الطواف بالبيت العتيق مما أمر الله به ورسوله، وأما الطواف بالأنبياء والصالحين فحرام بإجماع المسلمين، ومن اعتقد ذلك ديناً فهو كافر؛ سواء طاف ببدنه أو قبره). الفتاوى (٣٠٨/٢).

وقال: (ليس في الأرض مكان يطاف به كما يطاف بالكعبة، ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة... فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل، مع أنها كانت قبلة لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتخذها مكاناً يطاف به كما يطاف بالكعبة؟! والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال) (٢٧ / ١٠).

وأما الطواف الذي هو من جنس العبادة - ويذكره د/جمعة في سياق السجود للقبر، والدعاء والاستغاثة بصاحبه- فصرفه لغير الله شرك، قال تعالى: ((وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ))[الحج:٢٩]، ولذلك لم يفصل العلماء فيه وإنما أطلقوا الحكم فيه، قال ابن القيم: (يتخذ قبره وثناً يعكف عليه ويوقد عليه القناديل، ويعلق عليه الستور، ويبنى عليه المسجد، ويعبده بالسجود له والطواف به وتقبيله واستلامه، والحج إليه والذبح عنده، ثم ينقله درجة أخرى -أي: الشيطان- إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيداً ومنسكاً، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم) إغاثة اللهفان (٢١٧/١).

وكونه فعلاً لا يخرجه عن الحكم المترتب عليه؛ لما سبق تحريره في مناقشة الأصل الأول، قال المقريزي: (تضمنت هذه الآية ((إِيَّاكَ نَعْبُدُ))[الفاتحة:٥] تجريد التوحيد لرب العالمين في العبادة، وأنه لا يجوز إشراك غيره معه؛ لا في الأفعال ولا في الأقوال ولا في الواردات، فالشرك به في الأفعال كالسجود لغيره، والطواف بغير بيته المحرم، وحلق الرأس عبودية وخضوعاً، وتقبيل الأحجار غير الحجر الأسود الذي هو يمين الله في الأرض، أو تقبيل القبور واستلامها والسجود لها). تجريد التوحيد (ص: ١٩).

وقال الصنعاني: (فإفراد الله تعالى بتوحيد العبادة لا يتم إلا بأن يكون الدعاء كله له، والنداء في الشدائد والرخاء لا يكون إلا لله وحده، والاستعانة بالله وحده، واللجأ إلى الله، والنذر والنحر

له تعالى، وجميع أنواع العبادات من الخضوع والقيام تذللاً لله تعالى، والركوع والسجود والطواف والتجرد عن الثياب والحلق والتقصير كله لا يكون إلا لله عز وجل). تطهير الاعتقاد (ص: ٢٨).

قال الشوكاني: (وكذلك النحر للأموات عبادة لهم، والنذر لهم بجزء من المال عبادة لهم، والتعظيم عبادة لهم، كما أن النحر للنسك وإخراج صدقة المال، والخضوع والاستكانة عبادة لله عز وجل بلا خلاف، ومن زعم أن ثم فرقاً بين الأمرين فليهده لنا، ومن قال أنه لم يقصد بدعاء الأموات والنحر لهم والنذر لهم عبادتهم فقل له: فلأي مقتضى صنعت هذا الصنع ؟ فإن دعاءك للميت عند نزول أمر بك لا يكون إلا لشيء في قلبك عبر عنه لسانك، فإن كنت تهذي بذكر الأموات عند عرض الحاجات من دون اعتقاد منك لهم فأنت مصاب بعقلك..). الدر النضيد (ص: ٢٠).

كما أن إطلاق بعضهم التحريم ينبغي ألا يفرح به في البراءة من الحكم بالشرك، كما هو صنيع من يقتطع عبارات التحريم من الفقهاء ليستدل بها على هواه ويضل بها الناس، وقد اشتد نكير الشيخ محمد بن عبد الوهاب على من زعم أن النذر لغير الله إنما هو من المحرمات التي هي دون الشرك، فقال في بيان هذا التلبيس في جوابه على ابن سحيم حين زعم أن النذر لغير الله ليس بشرك: (فدليلك قولهم: النذر لغير الله حرام بالإجماع، فاستدللت بقولهم: (حرام) على أنه ليس بشرك، فإن كان هذا قدر عقلك فكيف تدعي المعرفة ؟ يا ويلك! ما تصنع بقول الله تعالى: ((قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا))[الأنعام:١٥١]، فهذا يدل على أن الشرك حرام ليس بكفر يا هذا الجاهل لمركب! ما تصنع بقول الله تعالى: ((قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ))[الأعراف:٣٣] إلى قوله تعالى: ((وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا))[الأعراف:٣٣]، هل يدل هذا التحريم على أنه لا يكفر صاحبه ؟ يا ويلك! في أي كتاب وجدته إذا قيل لك هذا حرام أنه ليس بكفر؟! فقولك: أن ظاهر كلامهم ليس بكفر، كذب وافتراء على أهل العلم؛ بل يقال: ذكر ذلك أنه حرام، وأما كونه كفراً فيحتاج إلى دليل آخر، والدليل عليه أنه مصرح في الإقناع أن النذر عبادة، ومعلوم أن لا إله إلا الله معناها: لا يعبد إلا الله، فإذا كان النذر عبادة وجعلتها لغيره كيف لا يكون شركاً!) مجموعة مؤلفات محمد بن عبد الوهاب (٥/٢٢٩).

ومن ذلك قول ابن حجر الهيتمي في الزواجر عن اقتراف الكبائر: (الكبيرة الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة والتسعون: اتخاذ القبور مساجد، وإيقاد السرج عليها، واتخاذها أوثاناً، والطواف بها، واستلامها، والصلاة إليها... نعم قال بعض الحنابلة: قصد الرجل الصلاة عند القبر متبركاً به عين المحادة لله ورسوله، وابتداع دين لم يأذن به الله، للنهي عنها ثم إجماعاً، فإن أعظم المحرمات وأسباب الشرك الصلاة عندها، واتخاذها مساجد، أو بناؤه عليها، والقول بالكراهة محمول على غير ذلك؛ إذ لا يظن بالعلماء تجويز فعل تواتر عن النبي لعن فاعله، ويجب المبادرة لهدمها، وهدم القباب التي على القبور؛ إذ هي أضر من مسجد الضرار؛ لأنها أسست على معصية رسول الله؛ لأنه نهى عن ذلك، وأمر رسول الله بهدم القبور المشرفة، وتجب إزالة كل قنديل أو سراج على قبر، ولا يصح وقفه ونذره) (١/١٢٠).

قوله: (أما إقحام الشرك والكفر في هذه المسألة فلا وجه له، اللهم إلا على افتراض أن الطائف يعبد من في القبر، أو يعتقد أنه يجلب الضر والنفع بذاته، أو يعتقد بأن الطواف عبادة شرعها الله كما شرع الطواف بالبيت، وكلها احتمالات ينأى أهل العلم عن حمل فعل المسلم عليها كما سبق؛ لأن فرض المسألة في المسلم الذي يطوف بالقبر لا في غير ذلك؛ ولا يجوز للمسلمين أن يشغلوا أنفسهم بمثل هذه المسائل ويجعلوها قضايا يحمل بعضهم فيها سيف الكلام على صاحبه، فيكون جهاداً في غير وغى، ويكون ذلك سبباً في تفريق الصفوف وبعثرة الجهود).

العبادة قد سبق أنواعها، وأن من دعا غير الله واستغاث به وذبح ونذر فقد عبده من دون الله، وأما اعتقاد أن المقبور يجلب الضر والنفع بذاته فإن هذا لم يكن يعتقده بعض المشركين الأوائل، وربما وجد طوائف يعتقدون ذلك كما سبق، وأما بيان التوحيد وما يضاده من الشرك والتحذير منه فهو أعظم الجهاد الذي قام به عليه الصلاة والسلام، والمعركة بالبيان مع من يروج لأسبابه ويصد الناس جهاد في وغى، وكيف يفسح المجال لمن يمزق الصفوف بالدعوة إلى القبور، ويطالب أتباع التوحيد بالسكوت، وإذا ما قاموا لله وصموا بالتفريق؟! فالاشتغال بذلك من الواجبات.

وأما كون الحديث عن هذه الأمور سبباً لتفريق الصفوف وبعثرة الجهود، فيحضرني نقل عجيب يشبه ذلك عن أحد علماء الأزهر حين كتب مقالاً يقول فيه لمنكر وجود السيدة زينب في هذا القبر ووجود رأس الحسين في القبر المنسوب إليه: (إنك جئت تفجأ المسلمين في اعتقاداتهم المقدسة النبوية، فإنك تريد أن تطير البقية من دينهم). مجلة المنار (٣/٢٢٢).

وبقي أن نذكر بعض المشاهد للطائفين بالقبور:

ـ قال رشيد رضا يصور جماعة من هؤلاء القبوريين: (تطوف حول قبر السيد البدوي الذي تحول إلى كعبة ثانية، وكانت هذه الجماعة تطلب من السيد لما شاع بينها من القصص والحكايات حول مقدرته العجيبة في قضاء الحوائج). دمعة على التوحيد (ص: ٦٤).

ـ قال عبدالله بن محمد خميس يصور مشهدا عند قبر ابن عربي في دمشق: (لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق فوجدت فئاماً من الناس يغدون إليه ويروحون.. وجدتهم يطوفون حوله، ويتوسلون به، ويعلنون دعاءهم له من دون الله، وجدت المرأة تضع

خدها على شباك الضريح وتمرغه وتنادي: أغثني يا محيي الدين!). دمعة على التوحيد (ص: ٧٠).

ـ وكذلك قبر بهاء الدين زكريا في الهند يطوفون حوله، ويعملون ويصنعون على قبره جميع الأعمال اللائقة بالمعبود؛ كالسجود، والنذور، وما أشبه ذلك، وكذلك ضريح علي الهجوري في لاهور في باكستان، وهو من القبور العظيمة، والناس يزورونه كل سنة بل كل يوم، ويطوفون حوله، ويسجدون له، ويقدمون النذور، ويستغيثون به، ويطلبون العون والمدد). دمعة على التوحيد (ص: ٧٠).

ـ قال عبد الرحمن الوكيل: (كنت أطوف حول صنم البدوي، حتى إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة في وثنه النحاسي البراق أنفذت منها يدي في رعشة التقديس حتى ألمس ستر القبر، ثم أخرجها رويداً رويداً بحرص وحذر بالغين..). دمعة على التوحيد (ص: ٦٢).

وقد يتجاوز الطواف إلى أبعد من ذلك، قال محمد رشيد رضا في مشاهدته بعض العامة رجالاً ونساء في مسجد الحسين بالقاهرة: (يطوفون بعمود من الرخام، ويتمسحون به التماساً للبركة وتقرباً إلى السيد البدوي، معتقدين أنه يجلس بجانب هذا العمود عند زيارة جده الحسين، ومنهم من يزعم أن روح الحسين ترفرف دائماً هناك). دمعة على التوحيد.

وأخيراً ذكر بعض الأسباب التي تدعو إلى عدم الكلام في هذه القضايا:

بين محمد رشيد رضا أن الذي دفع العلماء إلى السكوت عن هذه الأمور خوفهم من الوقوع في قضية إنكار الكرامات، أو الاعتراض على الأولياء الذي يخشى معه أن يلحقوا بهم الأذى والضرر. دمعة على التوحيد (ص: ١٦٤).

وذكر أنه كان مرة في قبة الإمام الشافعي، وكان ثم جماعة من أكابر علماء الأزهر وأشهرهم، فأذن المؤذن للعصر مستدبراً القبلة، فقال لهم: لم لمْ يستقبل هذا المؤذن القبلة كما هي السنة؟ فقال أحدهم: إنه يستقبل ضريح الإمام ! وذكروا أيضاً أنهم لا ينكرون على من يستقبل قبر الإمام في الصلاة !! دمعة على التوحيد (ص: ١٦٣).

أما الحوار الذي كان سبباً لفتوى د/جمعة وكان مع د/ محمد عبد الغفار الشريف؛ فإننا نقف معه ثلاث وقفات على النحو التالي:

الأولى قوله: (أما الطواف بالقبور فغير مشروع عند كل علماء المسلمين بمن فيهم الصوفية، واختلفوا هل هو حرام أم مكروه؟ ولم يقل أحد بأنه شرك، إلا بعض المعدودين على الأصابع ممن ينسب إلى العلم. ثم نقل كلاماً لشيخ الإسلام وفي آخره: (ليس في الأرض مكان يطاف به كما يطاف بالكعبة، ومن اعتقد أن الطواف بغيرها مشروع فهو شر ممن يعتقد جواز الصلاة إلى غير الكعبة)، ولم يكمله.

وقد أطلنا الحديث حول مسألة الطواف بالقبر، وأن كلام العلماء الذين نقله مناطه التعظيم الذي يجعله مشابهاً للكعبة كما سبق، وأما إذا كان التعظيم للقبر أو صاحبه فذاك كفر، فالتشبه هنا مكروه كراهة تحريم كما عليه الجمهور، وأما الطواف الذي هو من جنس العبادة - ويذكره د/جمعة في سياق السجود للقبر، والدعاء والاستغاثة بصاحبه- فصرفه لغير الله شرك، قال تعالى: ((وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ))[الحج:٢٩]، ولذلك لم يفصل العلماء فيه، وإنما أطلقوا الحكم فيه، قال ابن القيم: (يتخذ قبره وثناً يعكف عليه، ويوقد عليه القناديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له والطواف به، وتقبيله واستلامه والحج إليه والذبح عنده، ثم ينقله درجة أخرى –أي: الشيطان- إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيداً ومنسكاً، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم). إغاثة اللهفان (٢١٧/١).

وأما نص كلام شيخ الإسلام الذي لم يتمه د/ الشريف فتتمته: (... فمن اتخذ الصخرة اليوم قبلة يصلي إليها فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب وإلا قتل، مع أنها كانت قبلة لكن نسخ ذلك، فكيف بمن يتخذها مكاناً يطاف به كما يطاف بالكعبة؟ والطواف بغير الكعبة لم يشرعه الله بحال) (٢٧ /١٠).

وهو صريح بأن الطواف بالصخرة في المسجد الأقصى أشد من الصلاة إليها وحكمه عليه بالكفر !! فلماذا لم ينقله د/ الشريف ؟!

الثانية: قوله: (الذي أعرفه من نفسي ويعرفه عني أحبابي وطلبتي أن تركيبتي الفكرية والشخصية تتنافر مع الخرافات، فكيف أكون داعية إليها؟ أما التصوف المستنبط من الكتاب والسنة والذي يسمى إحساناً في المصطلح الشرعي، فيشرفني أن أكون من دعاته إذا أذن لي بذلك العلماء العارفون المتحققون بالشروط الشرعية، ويكفي أن أذكر منهم معروفاً الكرخي الذي أثنى عليه علماء الإسلام بمن فيهم ابن تيمية، ومنهم الإمام الغزالي الذي تفخر به البشرية، ومنهم الإمام النووي حسب ما ذكره تلميذه ابن العطار في سيرته).

أما التصوف المستنبط من الكتاب والسنة فهو الذي بمعنى الزهد، وكان عليه السابقون كمعروف الكرخي، قبل أن يتطور من جانبين: الجانب العملي وما يشوبه من الخلوات والجوع والصمت والسياحة في البراري، والجانب الفلسفي كالفناء والجمع، والحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، والحقيقة المحمدية، والإنسان الكامل، وأن الإنسان يسعه الخروج عن الشريعة بحجة علم الباطن الذي يمتلكه الصوفية، وصار الوصول إلى إنسان كامل يعبرون عنه بحق في صورة خلق هو الغاية، وعليه فتنسب إليه خصائص الإلوهية؛ من التصرف في الكون، وإحياء الموتى، وادعاء علم الغيب، وغيرها مما هو مسطر في دواوين الصوفية، وصارت هذه المفاهيم بمجموعها تدل على التصوف.

فالتصوف المستنبط من الكتاب والسنة لم يعد كباقي الوشم

في ظاهر اليد، وعلى الدكتور الشريف أن يفصل حين يتحدث عما ينتحله من تصوف بالبراءة من كل شائبة طرأت على المفهوم، ليعود ويعيش في القرن الثالث الهجري الذين هم مقصود شيخ الإسلام في القسم الثالث من قوله: (ابن عربي وأتباعه وإن ادعوا أنهم من الصوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة، ليسوا من صوفية أهل الكلام، فضلاً أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة، كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبدالله التستري وأمثالهم..). الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

وأما قوله عن التصوف بأنه الإحسان، فهو يتضمن معنيين: أحدهما ما ذكره د/ الشريف، والثاني ما أقدم عليه بعض غلاة الصوفية من تأويل حديث: (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) بغير علم فقال: فيه إشارة إلى مقام المحو والفناء، وتقديره: فإن لم تكن أي: فإن لم تصر شيئاً وفنيت عن نفسك حتى كأنك ليس بموجود فإنك حينئذ تراه، وغفل قائل هذا للجهل بالعربية عن أنه لو كان المراد ما زعم لكان قوله: (تراه) محذوف الألف؛ لأنه يصير مجزوماً على زعمه جواب الشرط..فتح الباري (١/١٢٠).

الثالثة: قوله: (ومما أعلمه وأعتز بذلك شرح الحكم العطائية لابن عباد الرندي، الذي مدحه الإمام الشاطبي وغيره، وإحياء علوم الدين للإمام الغزالي، الذي أثنى عليه وعلى كتابه المسلمون وغيرهم، ولا يهمني رأي فئة قليلة من الناس لا ترى الحق إلا فيما تعتقد).

أما الحكم بالأغلبية في المسائل العلمية فليس بمسلك المنصفين، قال أبو علي الفضيل بن عياض: (اتبع طرق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين)، ولا يستوحش الدكتور باتباع الفئة القليلة، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة لما معها من الحق، ولا شك أن إحياء علوم الدين قد تضمن من دائرة الرقائق وتهذيب النفوس وإصلاح القلوب ما يثني عليه المنصف، ولكن فيما يتعلق بالحديث عن التصوف وأهله فلا يوافق عليه إلا جاهل أو ضال، وأربأ بالدكتور أن يكون أحدهما، وأضع هنا ما يكون من صميم الموضوع:

ـ هل يقر د/ الشريف ما فيه من تقسيم التوحيد إلى أربعة أقسام: أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله، الثانية: أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كما صدق به عموم المسلمين، وهو اعتقاد العوام، الثالثة: أن يشاهد بطريق الكشف بواسطة نور الحق، وهو مقام المقربين، الرابعة: ألا يرى في الوجود إلا واحداً، فلا يرى نفسه أيضاً، وهي مشاهدة الصديقين، وتسميه الصوفية: الفناء في التوحيد؛ لأنه من حيث لا يرى إلا واحداً، فلا يرى نفسه أيضاً، فهو (موحد بمعنى: أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد، فلا يرى الكل من حيث أنه كثير بل من حيث أنه واحد)، وأضاف: (فإن قلت: كيف يتصور ألا يشاهد إلا واحداً وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة، فكيف يكون الكثير واحداً؟ فاعلم أن هذه غاية علوم المكاشفات، وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب، فقد قال العارفون: إفشاء سر الربوبية كفر)، وأجاب: (إن الشيء قد يكون كثيراً بنوع مشاهدة واعتبار، ويكون واحداً بنوع آخر من المشاهدة والاعتبار، وهذا كما أن الإنسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وأحشائه، وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول: إنه إنسان واحد..... وإلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال: من أنت؟ فقال: أدور في الأسفار لأصحح حالتي التوكل، فقال الحسين: قد أفنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد؟!) (٤/٢٤٥-٢٤٧).

ـ وهل يقر فيه قول الغزالي فيما ينقله عن أبي تراب النخشبي لبعضهم: (لئن رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة) (٤/٣٥٦).

أم هل يقر قول أبي يزيد لأحد أعيان بسطام: (قولك: سبحان الله شرك؛ لأنك سبحت نفسك فعظمتها وما عظمت ربك) (٤/٣٥٨).

ـ ألم يقرأ قول الغزالي في آداب الخلوة: (ويخلو بنفسه في زاوية، ويقتصر على الفرائض والرواتب، ولا يقرن همه بقراءة القرآن، ولا بالتأمل في تفسير، ولا يكتب حديثاً) (٣/١٩)، وقوله: (القلوب وإن كانت محترقة بحب الله تعالى فإن البيت الغريب يهيج منها ما لا تهيج تلاوة القرآن)! (واعلم أن الغناء أشد تهييجاً للوجد من القرآن لوجوه عديدة!) (٢/٣٠١).

ـ ألم يمر على تقسيم الغزالي الناس إلى صنفين: (الصنف الأول: وهم الأذكياء الذين لا يطلبون الجنة وإنما يطلبون مجالسة رب العزة دائماً، والصنف الثاني: وهم البله أي: البسطاء الذين يتمتعون في الجنة بالنسوان والطعام والشراب كالبهائم!) (٤/٣٣٥)، وقوله: (وما حكي من تفرس المشايخ وإخبارهم عن اعتقادات الناس وضمائرهم يخرج عن الحصر) (٣/٢٥)، وقوله: (اعلم أن المريد في ابتداء أمره ينبغي ألا يشغل نفسه بالتزويج، فإن ذلك شغل شاغل يمنعه من السلوك ويستجره إلى الأنس بالزوجة) (٢/٣٠١).

ـ وقوله: (إن من أولياء الله من تزوره الكعبة وتطوف به) (١/٢٦٩).

وحسبنا هذه التي تتعلق بمسائل التصوف والحديث عن أهله؛ إذ الغرض المثال لا الاستكثار، ولو قيد د/ الشريف الاستفادة من إحياء علوم الدين بما فيه من الرقائق مع الإعراض بل الانتقاد لما حواه من ترهات الصوفية لأرشد.

والله أسأله الهداية والرشاد، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

متابعات

محمد عبد العزيز الهواري

سعيًا للبركة..لاعب كرة فرنسي في ضيافة شيخ البودشيشية

قام اللاعب الدولي الفرنسي حاتم بن عرفة - من أصل جزائري- بالنزول ضيفاً على شيخ الزاوية البودشيشية مصطفى بن حمزة بمنطقة تسمى «مذار» قرب مدينة وجدة المحاذية للحدود الجزائرية.

ويعتبر بن عرفة من اتباع هذه الزاوية الصوفية، وهو يوجد منذ فترة في مقرها لـ «التبرك» من شيخها بن حمزة، على حد زعمه، لعدم ضمه للمنتخب الفرنسي خلال هذه الفترة.

وتحاول الزاوية البودشيشية أن تجتذب المشاهير مع عدم محاولة الاصطدام مع أخطائهم الدينية؛ سعيًا لإيجاد نفوذ قوي للزاوية بين الزوايا والطرق الصوفية الأخرى على مستوى العالم.

ومن هؤلاء المشاهير الذين اجتذبتهم الزاوية: مغني الراب الفرنسي من أصل كنغولي "عبد المالك"، والذي كان يدعى «ريجيس فاييت» قبل إسلامه، وبلغ ارتباط مغني الراب الشهير بالزاوية البودشيشية إلى درجة أنه سمى ابنه على اسم شيخ هذه الطريقة الصوفية: «حمزة».

يذكر أن الاهتمام بقضايا التصوف عمومًا والزاوية البودشيشية تحديدًا تزايد من خلال اهتمام وسائل الإعلام المرئية والمكتوبة المغربية بقضايا الزاوية.

ويلاحظ المتتبع لأجهزة الإعلام الرسمية أن هناك تركيزاً كبيراً على الأنشطة الصوفية، والخطاب الصوفي والتربوي؛ بل امتد الأمر إلى حد تمرير متابعات إعلامية لأنشطة تربوية محسوبة على الطريقة القادرية البودشيشية، التي أصبحت من أكبر المستفيدين من تزايد الاهتمام بالزوايا والطرق الصوفية، حيث تم تسخير الإعلام الرسمي لنقل فعاليات مواسمها السنوية بشكل مكثف وغير مسبوق، ولا شك أن التركيز على الزاوية البودشيشية ليس مرده بالضرورة إلى انتماء وزير الأوقاف لهذه الزاوية، بل بسبب الامتداد الواسع والشعبية المتعاظمة التي أضحت تحظى بها هذه الزاوية داخل المغرب وخارجه.

صحيفة القبس الكويتية ٢٠٠٨/٦/٧م

طقوس وثنية وقرابين للقبور لمواجهة العنوسة والعقم في الجزائر

بمباركة العديد من الطرق الصوفية في الجزائر تمارس طقوس وثنية، وتقدم القرابين للقبور، وتلطخ جدران المقابر بالدماء طلبًا للزواج ودفعًا للعقم!!!

يبدأ الإعداد لهذه التجمعات بجمع المال للتحضير لذلك مسبقاً، ثم يتم إخبار كل سكان المنطقة باليوم عن طريق البراح أو مكبر الصوت، ليبدأ السكان ممن يؤمنون ببركة ذلك الولي الصالح أو المقام الصالح بالتوجه إلى مكان الزيارة، حاملين رايات خضراء أو علب الشمع أو الحناء في اليوم المحدد سالفاً.

ثم يبدأ الجميع بالتجمهر بداخل المقبرة التي تضم ذلك المقام، ثم يتم إحضار الفدية (القربان) ثوراً كان أو غنماً ليتم ذبحه، وغطس الأيدي في دم الثور، ووضع الأيدي على جدار تلك البناية التي تضم الضريح، ومن ثمة يؤخذ الثور إلى النساء اللاتي يشرفن على تحضير المأدبة، وإبان تحضير المأدبة يقوم الحضور بالرقص على أنغام الدف والمزمار، والطواف على ضريح (الولي)، وترديد ابتهالات وأدعية لمنح المريض الشفاء والعقيم الولد والعانس الزوج.

وهناك من يقومون بالدخول إلى ضريح ذلك الولي ويأكلون شيئاً من التراب الذي يفترشه قبره للتبرك، وكذا يقبّلون القماش الذي يكسوه، ويتوجهون بالدعاء إلى ذلك القبر بأن يفرج عنهم الهم والغم.

وقائع هذا الاحتفال أو الزيارة تحدث داخل المقبرة التي يوجد بها الضريح، مع العزف على الدف والمزمار والرقص على القبور، مما جعل أغلب هذه القبور تفقد معالم توحي بوجودها بعدما سوّتها أقدام أولئك الراقصين مع الأرض!

ويبقى هذا التجمع من النهار إلى غاية الليل، ليبيت الحضور ممن كانوا غرباء عن الديار في خيم كبيرة، وعلى عزف الدفوف

والمزامير تحيا سهراتهم الليلية رجالاً ونساء.

و يتم في هذه الاحتفالات بيع أشياء لا ثمن لها ولا قيمة بأسعار عالية جداً بدعوى التبرك! كأن تباع قطعة شمع استغلت سابقاً بداخل ذلك المقام ولم يتبق منها إلا الشيء القليل بـ١٠ آلاف دينار! بعد أن عرضها أحد المشرفين على هذا التجمع على أنها تشفي من العقم!! وكذا بيعت علب الحناء وبقايا الشمع بآلاف الدينارات إلى كل ذي علة أو مرض، ويتم هذا البيع عن طريق المزاد والتنافس!!

وقد بين بعض الأئمة حرمتها، وأن هؤلاء أصبحوا قبوريين– أي: عبدة القبور – وأن ما قاموا به يدخل في خانة الشرك بالله، غير أنه وفي ظل عدم تحمل الوزارات الوصية المسؤولية تبقى هذه العمليات تلقى رواجاً هائلاً ودعماً مفرطاً، وخلال هذه السنة سجل متتبعو هذه الحفلات حضور العديد من الوافدين من المدن الساحلية ومن الإناث خاصة، مما يؤكد أن هذه التصرفات والطقوس لن تبقى حكراً على سكان المناطق النائية فقط، بل ستعرف خلال الأيام القادمة انتشاراً هائلاً، كما ستحظى بالترويج ما لم تضع الدولة حداً لهذه التصرفات التي تهدد المجتمع.

صحيفة النهار الجزائرية ٢٠٠٨/٥/٢٧م

أبو الهدى الحسيني.. ابن الرومي تأثر بالكتاب المقدس

في حوار له مع (العربية نت) أكد الشيخ السوري الصوفي (محمود أبو الهدى الحسيني) والمحاضر في جامعة هارت فورد اللاهوتية الأمريكية، تأثر ابن الرومي بكتاب النصارى المسمى (بالكتاب المقدس).

وقال الشيخ محمود للعربية نت: إن موضوعات المقرر هي مدخل "نبين بدايات جلال الدين الرومي وكتبه، ثم البحث الذي يقسم إلى أقسام: صلة كتاباته بالنص الإسلامي، والنصوص السماوية التي سبقت الإسلام، ونشير إلى تأثره قليلاً بالكتاب المقدس)).

وأضاف: ((ونبين في المحاضرات معرفة الرومي بالله في كتاباته.. معنى العشق الإلهي.. مفهوم التربية الذي تبناه، وكيف كان يربي من حوله، ثم قراءته في الإنسان وفي الكون، ورسم لوحات قرأت فيها السماء، وربط ما في السماء بالإنسان، وقرأ النباتات والحيوانات والموسيقى وربطها بالإنسان".

وأشار إلى أن اهتمام الأمريكيين قديم بجلال الدين الرومي، قائلاً: إن كتبه تطبع في مواسم أعياد الميلاد بسبب لغته الإنسانية، على حد زعمه.

هذا، ويقدم الطبيب الشيخ محمود أبو الهدى الحسيني خلال الشهر الجاري (١٣) محاضرة عبر الإنترنت عن الشاعر الصوفي جلال الدين الرومي، لطلاب مرحلة الدراسات العليا في جامعة هارت فورد اللاهوتية الأمريكية.

والشيخ محمود أبو الهدى الحسيني هو خطيب جامع العادلية بحلب والجامع الأموي الكبير، ورئيس الجمعية السورية للنباتات الطبية، وأستاذ الطب البشري بجامعة حلب، ويعتبر أحد أبرز وجوه الصوفية.

العربية نت ٢٠٠٨/٥/٢١م

مؤتمر بجامعة الأزهر عن دور التصوف في مواجهة تحديات العصر

عقد مؤتمر "الدور الصوفي في مواجهة تحديات العصر" الذي نظمته القيادة الشعبية الإسلامية العالمية في جامعة الأزهر بالقاهرة.

وطالب المؤتمر بضرورة العناية بالإعلام الإسلامي الصوفي باعتباره أداة وصل وتوعية وتثقيف الشعوب، من خلال إنشاء فضائية صوفية، وتدشين عدد أكبر من المواقع الإلكترونية لإيصال صوت التصوف إلى أرجاء المعمورة.

كما دعا المؤتمر إلى إعادة نشر وطباعة كتب التصوف والتربية والسلوك، وتشجيع ودعم الملتقيات الصوفية عن طريق جعل الموالد مؤتمرات شعبية لإجلاء حقيقة التصوف والعمل على التنسيق بين مشايخ الصوفية بما يحقق تكاملاً في برامجها.

وأكد عبد الحليم العزمي - رئيس تحرير مجلة (الإسلام وطن) الصادرة عن الطريقة العزمية- على أهمية مساهمة الصوفية في تخصيص جزء من الأوقاف للإنفاق على المراكز البحثية العلمية.

وجاءت أبحاث مؤتمر الصوفية كالآتي:

الشريف عبد الحليم: تطهير المتصوفين من المنحرفين والدخلاء ضرورة، د. محمد مورو: هزيمة الأمة من الداخل بسبب عدم تطبيق مبادئ الدين، د. عبدالمقصود باشا: للأسف.. مؤسسات العمل المشترك شعارات فقط، د. عبد الله كامل: الصوفية بريئة مما يحدث في الموالد.. وإهمال علوم الفقه والعقيدة.

وفي بحث بعنوان: ((الدور الصوفي في مواجهة التحديات الداخلية)) عدد الدكتور عبد الله محمد كامل التحديات

الداخلية التي تواجه الصوفية وأولها: عدم وضوح مفهوم ومعنى التصوف... وثانيها: ما سماه: تشويه أئمة التصوف وإظهارهم بالابتداع وعدم الاتباع.. أما التحدي الثالث فهو: محاولة فصل التصوف عن الشرع وفصل المتصوفة عن السلف... والرابع: إظهار التصوف بالانعزال عن الحياة ومماألة الحكام.. والخامس: الخلط بين المفاهيم الشرعية مثل: التوسل، وزيارة الصالحين، وإحياء الذكرى، والاجتماع للذكر، وبين الاتهام بالشرك والابتداع.

وعما يتردد عن استخدام الصوفية كباب للتشيع في مصر نفى كامل ذلك، وأضاف: "إن الصوفية تؤمن بأنه لا تهاون في مقام آل البيت، كما لا تهاون في مقامات الصحابة، ولا تهاون في مقام العرب، لكنها في نفس الوقت ترفض دعاوى الفرقة والشعوبية واستثارة أحقاد الماضي ونزاعاته".

كما حذر المؤتمر أيضاً من حملات التنصير التي "ما زالت تعمل بكل نشاط لتحويل المسلمين عن دينهم بشتى الطرق، مستغلة أوضاعهم الاقتصادية والتعليمية والسياسية".

كان المؤتمر قد بدأ بكلمة الأمين العام المساعد للقيادة الشعبية الإسلامية العالمية ألقاها الدكتور أحمد شوقي الحفني، ركز فيها على دور الصوفية في رفع شأن الأمة الإسلامية.. كما تناول محمد ماضي أبو العزايم المقومات التي تمتلكها الأمة من مظاهر القوة للانطلاق إلى آفاق التقدم والازدهار.. وأشار المهندس محمد عبد الخالق الشبراوي - شيخ الطريقة الشبراوية- إلى الاقتداء بالسلف الصالح.. وتناول سالم الجازولي - شيخ الطريقة الجازولية- دور الأمة في مواجهة التحديات.

إسلام أون لاين ٢٠٠٨/٥/٣٠م

مشيخة الطرق الصوفية تؤكد إطلاق أول فضائية صوفية مطلع ٢٠٠٩م

أكدت المشيخة العامة للطرق الصوفية عن سعيها لتدشين قناة فضائية تعبر عما أسمته: "الاعتدال الصوفي"، في يناير ٢٠٠٩م، باسم: "القناة الصوفية"، وستكون بعيدة كل البعد عن القضايا السياسية.

وصرح الشيخ علاء أبو العزايم - شيخ الطريقة العزمية- أنه "لا مكان للسياسة في صفوف الصوفية؛ لأن الصوفيين ليسوا مطالبين بسلطة أو حكم، وكل ما سيتعلق بسياسة أي دولة لن تتعرض له القناة، فهدفنا استقرار المجتمعات وتحقيق أمنها، لدينا إيمان بأنه لا يجوز الخروج على الحاكم، فالإمام هو إمام سواء أكان باراً أم فاجراً".

وأشار أن "القناة ستهتم بطرح قضايا الأمة وتقديم العلاج لها لتحقيق الإصلاح الشامل في العالم الإسلامي، ودعم ثقافة الاستقرار والأمن".

وأشار أبو العزايم إلى أنه تم الاتفاق على أن تكون القناة شركة مساهمة برأس مال خمسة ملايين جنيه مصري (نحو مليون دولار أمريكي)، بحيث تطرح أسهمها على أصحاب الأموال من الصوفيين ليشاركوا في جمع المبلغ.

وأكد أن القناة - التي ستطلق من مصر على القمر الاصطناعي (نايل سات)- ستفتح أبوابها كذلك للصوفيين من خارج مصر، "شريطة موافقة الحكومة المصرية؛ حتى لا يُترَك باب خلفي لدخول من لهم أغراض سياسية إلى القناة".

وحدد أهداف "القناة الصوفية" في "الدفاع عن الصوفية ضد من يهاجمونها ويكفرون أتباعها، وتوضيح المعنى الحقيقي للتصوف، وكشف من يصفون أنفسهم بأنهم صوفيون وهم لا يمتون للإسلام بصلة".

واعتبر أن القناة ستكون "وسيلة لمواجهة الأفكار المتشددة التي ظهرت جراء تراجع الدور الصوفي.. حيث ظهرت موجات تكفيرية تحاول أن تهدد أمن واستقرار المجتمعات الإسلامية".

وكان شيخ مشايخ الطرق الصوفية المصري - حسن المنشاوي- قد أكد مسبقاً على شروع قيادات الطرق في إجراء مفاوضات مع عدد من رجال الأعمال المنتمين لها لحثهم على المشاركة في تمويل أول فضائية عربية لنشر ثقافة "الاعتدال" الصوفي بالمنطقة.

وفي هذا السياق أشار الشيخ المنشاوي إلى أن القناة تهدف للتصدي للحملات التي تستهدف تشويه رموز الحركة الصوفية بقوله: "هناك بالفعل صورة تقليدية خاطئة يرسمها الإعلام للصوفيين باعتبارهم دراويش جهلة، من أصحاب الملابس الممزقة، وهو عكس الواقع تماماً، حيث إن الصوفيين الأوائل كانوا يحضون الناس على الرقي والظهور أمام الناس في أفضل صورة، وهذا سيكون جزءاً من أهداف الفضائية".

ورداً على سؤال حول مضمون الرسالة الإعلامية التي ستقدمها القناة قال الشيخ حسن المنشاوي: "سنحاول من خلالها إتاحة الفرصة لعلماء ومشايخ الطرق الصوفية في مصر والعالم أن يطرحوا أفكارهم ورؤيتهم في مختلف قضايا الدين والدنيا".

وأوضح أن القناة "ستنقل أنشطة المشيخة ومؤتمراتها وندواتها المنتظمة في كل مكان بجانب إذاعة برامج وثائقية وأرشيفية خاصة بالمسلمين وأصحاب الطرق الصوفية في كل بلاد العالم، بما فيها مظاهر احتفالاتهم وتفاصيل حياتهم اليومية".

إسلام أون لاين ٢٠٠٨/٦/٣م

أبو العزايم ينفي مشار كـ ة الشيعة في مؤتمر الصوفية بأمريـ كـا

أثـارت الـدعوة الـتي وجهتهـا عناصـر شيعية بالولايات المتحدة لبعض مشايخ الطرق الصوفية في مصر لحضور مؤتمر عن التصوف يعقد في ولاية كاليفورنيا ردود أفعـال متباينـة في أوسـاط مـشايخ الطرق الصوفية.

ومن ناحيته نفى محمد علاء أبوالعزايم - عضو المجلس الأعلى للطـرق الـصوفية وشـيخ الطريقـة العزميـة- مـشاركة أي رمـوز شيعية في منتدى الرابطة الدولية للتصوف بأمريكـا، نافيًا مـا أكدته إيران من مشاركة عناصر شيعية في المؤتمر، وأرجع ذلك لرغبة إيران في نشر مذهبها.

وأكد أبو العزايم أن جميع ما قيل قبل عقد المنتدى لا أساس له من الصحة، وادعاءات باطلة، حيث لم يحضر المنتدى أي شيعي أو حتى صوفي شيعي، واقتصر الأمر على حضور مشايخ الطرق الصوفية من جميع الدول الأفريقية وأمريكا، على حد زعمه.

وعـن أن المنتـدى تم بـدعوة أمريكيـة لتحـسين صـورة الولايـات المتحدة الأمريكية في المنطقة، بدليل اهتمام السفير الأمريكي الـسابق (فرنـسيس ريتـشاردوني) بالموالـد الـصوفية، ادعـى أبـوالعزايم أن المـشايخ لم يلتقـوا مطلقـاً مـع أي مـسؤول رسمـي بالإدارة الأمريكية خلال رحلتهم التي استمرت نحو الشهر.

وأشار إلى أن المنتدى نجح بكل المقاييس، حيث تم شرح المنهج الإسلامي وآداب وتعاليم الفقه والسنة النبوية الشريفة.

يذكر أنه في الوقت الذي أكد فيه بعض مشايخ الطرق الصوفية أن الـدعوة مـشبوهة لأنهـا تـروج للفكـر الـشيعي، معتـبرين أن الشيعة يحـاولون اختـراق الطـرق الـصوفية مـستغلين محبـتهم لآل البيـت، دافـع آخـرون عـن قبـولهم للـدعوة، مؤكـدين أن عـدداً كبيراً من الناس في مصر تحولوا للشيعة من المنتمين للجماعات الصوفية.

وحرصت الجماعات الشيعية الأمريكية على توجيه الدعوة بزيارة الولايات المتحدة وحضور هذه المؤتمر لعدد من مشايخ الطرق الصوفية وليس للمجلس الأعلى للطرق الصوفية، مما اعتبر دليلاً على وجود نوايا لتغييب المجلس وعدم الاعتداد به كجهة رسمية مسئولة عن تنظيم عمل الطرق الصوفية والإشراف على عمل المشايخ في مصر.

وكان أبو العزايم دافع عن قبوله للدعوة، وقال: إنها وجهت له من قبل "علي كيانفر" رئيس الاتحاد العالمي للتصوف، كما جاءته عن طريق رسالة بالبريد الإلكتروني من أحمد تيجاني، وكشف أن الدعوة موجهة لنحو ١٢ شيخ طريقة صوفية في مصر لحضور المؤتمر.

وفي هـذه الأثنـاء حـذر د. محمـد أبـو هاشـم - شـيخ الطريقـة الهاشميـة الخلوتيـة الأحمديـة، وعميـد كليـة أصـول الـدين بالزقـازيق- مـن حـضور هـذا المـؤتمر، قـائلاً: "إن هـذا المـؤتمر شيعي، والهدف من دعوة بعض مشايخ الطرق للمؤتمر هو محاولة تجنيـدهم لـدخول التـشيع إلى مـصر؛ لأن المـنظمين للمـؤتمر مـن الشيعة".

وقال أبو هاشم: إن الأمريكيين وجدوا أن الطرق الصوفية تمثل التيار المعتدل في مصر، ولهم أتباع كثيرون، ولذلك يحاولون أن يستثمروا هـذا الأمـر في توجيـه بعـض الـدعوات لـبعض مـشايخ الطرق الصوفية لزيارة أمريكا، غير مدركين الهدف من وراء هذه الدعوة.

وكـشف أبـو هاشـم في حديثـه لمجلـة "آخـر سـاعة" الأسـبوعية المصرية، عن اتخاذ المجلس الأعلى للطرق الصوفية قراراً يقضي بعدم سفر أي شيخ طريقة إلا بعد موافقة المجلس، ومعرفة سبب الدعوة، وذلك خوفاً من أن تكون نابعة من هذين التيارين.. التيار الأمريكي والتيار الشيعي، فالمجلس الأعلى للطرق الصوفية هو الهيئة العليا التي تدير التصوف في مصر.

صحيفة المصري اليوم٧ /٢٠٠٨/٦م

الطبعة الثانية من مهرجان موسيقي "القناوة" الصوفية

عقـد بـالجزائر الطبعـة الثانيـة مـن مهرجـان موسـيقى "القنـاوة" الـصوفية، بمـشاركة فـرق "جمعـاوي أفريقـا" و"سـيدي بـلال" و"ديوان الدزاير"، استمتعت الجماهير المواكبة للمحفل بعديد مـن الفواصـل مثـل: (بابانـا، بابـا سـيدنا، مـول الزمـان، مـول الـساعة، مـول الـسر، مـول الحـال، الـوالي، القبـة، الـديوان، الحضرة).

وأوضـح محـافظ المهرجـان الـوطني للموسـيقى والـرقص "القنـاوة" حـسين زايـدير في تـصريح لـ"الخـبر": "أن الطبعـة الثانيـة مـن المهرجـان سـتكون متميـزة مـن خـلال الفعاليـات الـتي سـتمتد إلى الـدوائر البعيـدة عـن مدينـة بـشار"، مـضيفاً: "سـنحيي حفـلات موازية للمهرجان، وهـذا بالتنسيق مع الفرق المشاركة من أجل تمكـين المـواطن البـشاري البعيـد عـن المدينـة مـن الاسـتمتاع

بالموسيقى الروحية القناوة".

بينما قال منظمون: إنّهم يتطلعون من خلال المهرجان إلى تحديث الموسيقى القناوية حتى لا تضيع الأخيرة وسط الصيحات الجديدة، بخلق مزيج من الرقصات التقليدية، والأنماط الموسيقية المعاصرة المجددة، تجمع بين الغناء والجاز الإفريقي والموسيقى الإلكترونية والهيب هوب، في مسعى يروم إعطاء الموسيقى القناوية المكانة التي تليق بها، لاسيما بعدما صارت هذه اللغة الخاصة التي تداولتها الأجيال تجوب المعمورة، وتحظى باهتمام فنانين عالميين.

وعن أصل هذه الموسيقى يقول البعض: إن القناوة هي «الوجه الأسود» لهوية الجزائريين والشمال أفريقيين عموماً، وينسبونها لمنطقة «السودان الغربي» التي تقع حالياً في جمهورية مالي وما جاورها.

وجاء أول مغني القناوة من عبيد أفريقيا الذين هجّروا من تمبوكتو وما جاورها إلى أقصى شمال أفريقيا، ويرجّح أنهم دعوا «قناويين» أو «غناويين» لتحدر آبائهم من دولة غينيا الاستوائية. ويقول بعض علماء الاجتماع والانثربولوجيا: إن وضعيتهم الاجتماعية القاسية هي التي جعلتهم ينطوون على أنفسهم بوجه سادتهم، ويحافظون على طقوسهم الغنائية القديمة كنوع من التشبث بالهوية الأم، وإن «حاولوا» تكييفها مع الدين الإسلامي عبر إنشاء زوايا خاصة بهم، سعت للانتقال من الأصل الوثني لمعتقداتهم إلى الدين الإسلامي المطعّم بالعادات الأمازيغية لسكان شمال أفريقيا، أي: سادة العبيد القناويين.

ومن الغريب أن القناويين الأوائل حاولوا المزاوجة بين الإسلام كدين توحيدي وميلهم للاعتقاد بالجان! وحتى يتجنبوا أي شبهة حول معتقداتهم الغريبة فقد نسبوا أنفسهم إلى الصحابي الأسود بلال بن رباح (رضي الله عنه) الذي كان يتحدر من أصول حبشية أفريقية.

ومن العادات الغريبة للقناويين الأوائل: إقامتهم حفلات على شرف ملوك الجان مثل: (شمهروش، لالا مليكة، سيدي ميمون، ولالا ميمونة..) وغيرهم، يسمون كل واحدة من هذه الحفلات بـ «الليلة»، ويحاولون استحضار الأرواح من أجل قضاء حاجاتهم الدنيوية.

أما الألبسة التي يرتدونها فعادة ما يكون لونها بين الأزرق والأحمر، وهي الألوان التي يحبذها الجان حسب ظنهم، ولحد الآن ما يزال بعض القناويين التقليديين يجوبون المدن والقرى الجزائرية بألبستهم المميزة والغريبة وآلاتهم التقليدية، ويسمى الواحد منهم: «القناوي» أو «بوسعدية»، ويميل البعض لـ«التبرك» به في طقوس احتفالية، كما تفعل بعض النسوة العاقرات حيث ينتظرن قدوم بوسعدية حتى يؤدين معه بعض الطقوس... أملاً في الحصول على الذرية الصالحة.

صوفية ألمانيا يدعون للتقرب إلى الله عبر الموسيقى والغناء

على إيقاعات الطبل والدف والذكر الصوفي تشكل قرية نائية في منطقة الآيفيل الألمانية قبلة لآلاف الزوار من كل أنحاء أوروبا، كلهم يأتون للصلاة وللذكر بالموسيقى والغناء في الزاوية العثمانية.

خلال الاحتفالات تتحول قرية صغيرة في منطقة الآيفيل الألمانية الواقعة على نهر الراين مرة في الشهر على الأقل إلى قبلة دينية للآلاف المتصوفين المسلمين الأوروبيين.

وتعد هذه "الزاوية" الوقت نفسه مقراً لمركز المتصوفين الألمان الذين يتبعون الطريقة النقشبندية، ويرأسها الشيخ حسن دايك، وهو ألماني اعتنق الإسلام قبل أكثر من ثلاثين عاماً، وكرس حياته لنشر التصوف بين الألمان.

ويرتدون كوفيات ذات أطراف مدببة، ويلفون حولها عمامات ملونة، كما يزينها بعضهم بريشة طاووس، كما يرتدون قمصان وسراويل طويلة وفضفاضة، في حين يلبس البعض الآخر علاوة على ذلك عباءات، ويطغى اللون الأخضر على بقية الألوان، حيث يبدو اللون المفضل لدى المتصوفين هنا، أما النساء فيلبسن أحجبة وملابس طويلة وفضفاضة تتميز بألوانها الزاهية والمتنوعة؛ من الزهري، والبرتقالي، إلى البنفسجي والأزرق والأحمر كذلك.

وبعد الصلاة الجماعية يبدأ الذكر، حيث يرتل المتصوفون آيات قرآنية في نسق متكرر، ثم تتحول عملية ترتيل الآيات القرآنية إلى غناء جماعي تارة عالياً وسريعاً، وتارة أخرى خافتاً وبطيئاً، ويرافق الغناء دق على الطبل والدف.

يُشار إلى أن غالبية المتصوفين يجلسون جنباً إلى جنب وهم مغمضو العينين، ويحركون رؤوسهم من اليمين لليسار بحركة منتظمة، ثم تقف الجماعة على شكل دائري وكل واحد يمسك بذراع الآخر ويقفزون في حركات منتظمة، وفي وسط الدائرة يغني شابان ويقرعان على دف وطبل، والشيخ حسن يرتل آيات قرآنية، وتتواصل هذه الحضرة حتى ساعات متأخرة من الليل.

وفي نهاية الحضرة يعزف الشيخ حسن دايك على آلة موسيقية هندية قديمة قطعة موسيقية شرقية، حيث لهذه الموسيقى مكانة

مميزة لديه: إنها الموسيقى التي اكتشفها خلال سنوات دراسته في برلين، والتي مهدت له الطريق للدخول إلى الدين الإسلامي، ولا تزال ترافقه حتى اليوم.

يذكر أن الزوار ليسوا من الألمان فحسب؛ بل كذلك من العرب والأتراك والأفارقة والأفغان والباكستانيين من كل أنحاء أوروبا الذين يأتون إلى قرية (كال زوتيش) خصيصاً للقاء الشيخ حسن دايك والصلاة معه، على غرار عبد الغاني لوجوايو، وهو رجل أعمال فرنسي من أصل يهودي يعيش ويعمل في باريس، وكان (لوجاويو) قد اعتنق الإسلام قبل خمسة عشر عاماً على يد شيخ صوفي تعرف عليه خلال رحلة قام بها في جزيرة قبرص. الجدير بالذكر أن المتصوفين على غرار الشيخ حسن أو عبد الغاني لوجايو لا يرون بأنهم قد غيروا أديانهم القديمة من المسيحية أو اليهودية إلى الإسلام، وإنما يرون في ذلك كمالاً لإيمانهم وخطوة نحو القرب من الله.

ويشكل المتصوفون الأقلية وسط المذاهب الإسلامية الموجودة في ألمانيا؛ إذ لا يتجاوز عددهم بضع مئات. وعلى الرغم من تأكيدهم على أنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع الألماني، وأن ما يميزهم عن الآخرين أنهم يسعون إلى التقرب من الله من خلال الصلاة والرقص والموسيقى، إلا أن مظهرهم الخارجي يوحي لزائر الزاوية العثمانية وكأنه في بلد إسلامي قبل مئات السنين.

موقع "دويتشه فيله"الألماني ٢٠٠٨/٦/١٦م

فيلم قطري - باكستاني – تركي عن جلال الدين الرومي

خلال مهرجان (كان) السينمائي أعلنت قطر بالتعاون مع باكستان وتركيا إنتاج فيلم في يناير القادم بعنوان: "الرومي.. ونار الحب" يحكي الفيلم حياة جلال الدين الرومي.

وسيقوم تصوير مشاهد الفيلم في تركيا ومدينة قونيا تحديداً، التي تعتبر مركز فكر صاحب "مثنوي" ومقر الجمعيات السائرة على أفكاره، أما الإنتاج فسيكون قطرياً.

ويتكلف الفيلم ٢٥ مليون دولار، تؤمنها قطر بكاملها، ويشرف على المشروع - من الناحية الفنية على الأقل- الكاتب الهندي إيباك شوبرا، المهتم بالصوفية وبالسينما منذ زمن والذي عين مستشاراً ثقافياً للمشروع، أما الإخراج فسيكون للباكستاني مظفر علي، الذي يرتبط اسمه عادة بالموسيقى الصوفية ويبدو أنه حقق أفلاماً عدة عن هذه الموسيقى.

وفي المقابل سيقوم المصور الإيطالي (فيتوريو ستورارا) بتصوير الفيلم، وهو الخبير بشؤون صورة الصحراء والبعد الميتافيزيقي للصورة، منذ التصوير الرائع الذي أمنه لفيلم: (السماء الواقية).. شاي في الصحراء لبرناردو برتولوتشي قبل سنوات، إذ صور هذا الفيلم في الصحراء المغربية.

هذا وقد ارتبط اسم المولوية بالغناء والموسيقى والرقص، ولآلة الناي مكانة كبيرة عند المولوية وشيخها الرومي الذي يقول: "استمع للناي كيف يقص حكايته، فهو يشكو آلام الفراق في صوت هو شكاية، ويقول به إنه منذ قطعوه من الغابة والناس يبكون ببكائه، وصدره يمزقه الفراق".

ويتميز المولوية بالرقص الدائري من قبل الدراويش المصاحب للموسيقى، ويعتقدون أن رقصهم هذا يوصلهم إلى الله، بل والاندماج معه سبحانه.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً!

ويقول شيخ المولوية السابق في طرابلس شفيع المولوية مخاطباً الرحالة الأمريكي سيبروك: "إن جميع الدروب تنتهي إلى الله، وعلى كل إنسان أن يختار الدرب الذي يراه أفضلها له، ولكنك تريدني أن أتكلم على الدرب الذي اخترناه نحن المولوية، كيف نسعى من خلال الرقص إلى الاندماج في الانسجام العلوي".

تنتشر المولوية بشكل خاص في تركيا، وبدرجة أقل في سوريا وفلسطين ولبنان، وبعض الدول الأخرى.

صحيفة دار الحياة ٢٠٠٨/٦/٧م

الخليفة الجديد للقادرية.. ينظم الملتقى الثالث للطريقة بالجزائر

قام شيخ الطريقة القادرية الجديد حسن محمد إبراهيم الشريف الحساني، بتنظيم الملتقى الثالث للطريقة الذي عقد تحت رعاية

عبد العزيز بوتفليقة، وحمل عنوان: "التربية الروحية في الطريقة القادرية".

واهتمت السلطات الجزائرية –كالعادة- بهذا الملتقى؛ إذ لم تتوان في تقديم كل الدعم المادي والمعنوي لأتباع الطريقة القادرية لإنجاح هذه المظاهرة، وحتى وسائل الإعلام العمومية لعبت دورًا كبيرًا في الترويج له؛ فقد بث التلفزيون الجزائري على مدى أيام إعلانات إشهارية حول الملتقى وجدول أعماله؛ وهو ما ساهم دون شك في جلب الكثير من المشاركين.

كما أرسل الرئيس الجزائري الأسبق (أحمد بن بلة) إلى شيوخ ومريدي الطريقة، وحيا من خلالها المبادرة التي قامت بها المشيخة، منوهاً بالجهود التي تبذلها مشيخة الطريقة القادرية من أجل حماية مكونات الشخصية الوطنية.

وأعلنت الطريقة القادرية عن دعمها ومساندتها القوية لتمديد حكم الرئيس عبد العزيز بوتفليقة لولاية رئاسية ثالثة؛ لأن بوتفليقة بالنسبة لها يمثل "رجل التاريخ"، كما قال الدكتور محمد بن بريكة، الذي صرح أيضاً بأن "بوتفليقة أعاد الاعتبار للطرق الصوفية والزوايا، وفتح المجال أمامها للتعبير عن مواقفها من كل الاستحقاقات السياسية".

وكان خلاف كبير نشب عقب وفاة الشيخ محمد بن إبراهيم الشريف الحساني بين نجله والدكتور محمد بن بريكة المنسق الأعلى للطريقة القادرية في الجزائر وعموم إفريقيا، على الزعامة من خلال "حرب" بيانات أشعل فتيلها أنصار الطرفين، فالفريق الأول تمسك بخيار التوريث بناءً على وصية قيل: إن الخليفة العام المتوفى تركها؛ حث فيها على أن يخلفه نجله على رأس الطريقة؛ لما رأى فيه من خصال حميدة، بينما تمسك الطرف الآخر بإعلان البيعة للدكتور محمد بن بريكة عملاً بوصية المعلم الأول للطريقة "سيدي محمد الجيلاني"، الذي أوصى بتولي العلماء والفقهاء للمشيخة.

يذكر أن جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مؤتمرها الثالث المنعقد مؤخراً وجهت انتقادات لاذعة لبعض الطرق الصوفية، التي ترى بأنها تعمل على نشر بعض البدع التي ماتت في وقت من الأوقات، أو بإحيائها لبدع جديدة، متأسفة - كما ورد في كلمة الشيخ عبد الرحمن شيبان- للترويج الذي تلقاه هذه "البدع" من قبل وسائل الإعلام العمومية أو الخاصة عن قصد أو عن غير قصد.

موقع إسلام أون لاين ٢٠٠٨/٦/٩م

مهرجان عن السلام برعاية صوفية في المغرب

شاركت أكثر من ٨ طرق صوفية من الباكستان ومدن فاس والعيون وتازة والعرائش ومراكش ومكناس في الليالي الصوفية بمهرجان فاس للسلام، مقدمة رقصات الجذبة كما هو حال الطريقة الحمدوشية، وأخرى تمارس الذكر الجليل (الطريقة التيجانية)، والسماع (الحراقية)، والإنشادات الصوفية (الدرقاوية)، والأمداح النبوية (سيدي بلعباس).

واقترحت دار البطحاء - وهي مقر إقامة فناني المعهد الثقافي الفرنسي بفاس- على هامش المهرجان أمسيات فنية للحلقة، وقدمت مطربة تدعى "شاهيناز" أغانٍ يهودية ومسيحية وإسلامية، كما اشتركت نساء عيساويات.

واقترح مهرجان داخل المدينة المنظم على هامش مهرجان فاس للموسيقى العريقة هذا العام أنشطة تربوية يومية للصغار والكبار، عبارة عن ورش للفنون التشكيلية والرقص والخط والكرنفال والترفيه؛ من خلال عرض مسرحيات، وغناء كورالي، وأمسيات شعرية احتضنها مجمعا القدس والحرية اللذان احتضنا ٨ ورش للأطفال في التعبير الجسدي والروحي، والتنكر والأقنعة، وأخرى للشباب.

وقامت المطربة ماجدة الرومي وعلى مدى الساعتين بتقديم حفل فني صوفي، وتحت صورة الملك المغربي بمهرجان فاس الفني، كما أدت عدداً من أغاني الحب التي اشتهرت بها.

وأكدت خلال المؤتمر الصحفي الذي عقد بعد الحفل على تصوفها، قائلة: "أنا صوفية أحب سماع الموسيقى الروحية التي تبقى خير جليس للإنسان في ظل النعرات الطائفية، والتصوف غذاء الروح"، على حد زعمها.

وأشارت الرومي إلى أنها قريبة من الصوفية، وتقرأ لكبار المتصوفة من أمثال: جلال الدين الرومي، والقديسة تيريزا دي أفيلا، والحلاج، وابن عربي.

كما أنشد خلال المهرجان أناشيد من الكنائس الشرقية المسيحية في إطلالة منها على أرصدة الطقوس القديمة السابقة، وتقاليد الكنائس الشرق أوسطية المارونية والأرثوذكسية والكاثوليكية والخلقيدونية والبيزنطية.